كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز لدراسات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
مؤتمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمستجدات المعاصرة

جهود الملك عبد العزيز في النهوض بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عيون الزائرين

قراءة في مختارات من أدب الرحلات

إعداد:

أ.د.طارق سعد شلبي

الأستاذ بجامعتي عين شمس وأم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

سمتٌ وتناول

نريد أن نمضي بهذا البحث سريعًا سريعًا إلى وُجْهته، معرضين عن حَشْدِ مُقدماتٍ ومداخل، و وإيرادِ تعريفاتٍ لمفاهيم ومصطلحات

الدراسات التي كتبت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة؛ ولها بالنسبة لهذه الصفحات يد السبق والريادة، وللعلماء الأجلاّء الذين كتبوها التقدير ،والعرفان الصادق بالجميل.

وقد مضَتْ هذه الدراساتُ على دربٍ واحد؛ فتواردَتْ الأفكار، وتكرَّرتْ النقول؛ من بيانٍ لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعراضٍ مطوّل لكيفيتهما ،وإيضاحٍ لأهمية هذا المسلك وانعكاساته الإيجابية على الفرد والمجتمع، ودوره في نهضة الأمة، وتأكيدِ ذلك كله بنصوصٍ من الكتاب والسنة، وضربِ أمثلة دالة على ما كان من الأنبياء والمرسلين والدعاة من الأئمة.

وإن مضينا على هذا الدرب نفسه زللنا ! لا للنقل والتكرار فقط بل لأننا لا نتوقع أن تبلغ قيمة ما نكتب شأو ما كُتِبَ، والباحثون من قبلناهم مَنْ هم تعمقا وإفاضة.

ولهذا نريد أن نمضي بهذا البحث سريعًا سريعًا إلى وُجْهته، معرضين عن حَشْدِ مُقدماتٍ ومداخل، و وإيرادِ تعريفاتٍ لمفاهيم ومصطلحات، وللمقدمات والمفاهيم مظان ومصادر أوفى من هذه الصفحات اليسيرة التي بين يديك. وحرصًا على إتمام الفائدة سنضمِّن قائمة المصادر والمراجع بعضًا من هذه المصادر والمظان لمن أراد أن يفيد منها.

ونحسب أن في التوجه "**المباشر**" نحو موضوع البحث اتساقًا مع طبيعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا إمكان لتمثلهما وتصورهما إلا في ممارسة "**عملية**" تتخذ من الفعل والتطبيق مجالاً للوقوف على كنهها والتماس نتائجها وآثارها.

ويرتكز البحث على توجه منهجي بعينه؛ وهو أن يكون استقراءً لمختارات من أدب الرحلات ورصدا ودرسا لها؛ يعتمد على الإنصات لما تود هذه المختارات أن تقوله، لا أن ننطقها نحن بما نود أن نقول !

والغاية الكبرى التي يطمح البحث إلى تحقيقها هي إبراز أهمية شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل على تأليف القلوب عليها، ورصد مظاهر التفات أهل المحبة والاحترام من أعلام الأمة إليها لما فطنوا إليه من ضرورة الأخذ بها.

طبيعةٌ وإطار

الكتابة عن الأعلام ينبغي أن تكون بحثا ودرسا؛ والتواصل مع سيرهم يجب أن يكون كشفا وإبانة لا خطابية وإنشاء على درب المدح والإشادة.

(١)

في تاريخ كل أمة أعلامٌ كبار،سجّلوا أسماءهم في التاريخ؛ لما انطوت عليه نفوسهم من جوانب تفرد، ولما قدموه لوطنهم في مختلف مجالات العطاء.

ومن حق هؤلاء الأعلام علينا، ومن حقنا على أنفسنا ، أن نهتم بهم اهتماما يتجاوز مجرد المدح والإشادة والثناء الجميل؛ فكتابةٌ –في أسلوبٍ تَغْلِبُ عليه الخطابيةُ الرنَّانَة– تقنع بهذه الغاية كتابةٌ محدودةُ المردودِ والمحصلة ؛لأن غاية ما تنتهي إليه متحققٌ وقارٌ قبل أن تُكْتب؛ وهو التعلق بهؤلاء الأعلام ومحبتهم.

الكتابة عن هؤلاء الأعلام ينبغي أن تكون بحثا ودرسا؛ والتواصل مع سيرهم يجب أن يكون كشفا وإبانة لا خطابية وإنشاء على درب المدح والإشادة.

(٢)

والاهتمام بسير الأعلام، والوقوف على جوانب التميز والتفرد في شخصياتهم، ورصد تجليات هذه الجوانب فيما جادوا به من عطاء، وكذا قراءة كتابات أعلام الفكر والثقافة، ممن شكلوا الوعي الثقافي العام نقول إن ذلك كله لا يصح أن يكون هدفا مرادا لذاته، ففي ذلك ترفٌ فكري لا تحتمله دقة الظرف التاريخي الذي نحياه.

لا يصح أن يكون الاهتمام بالأعلام، وقراءة نتاج الرواد بمعزل عن الهم الثقافي الذي نعايشه، ورصدُنا لمشكلات الواقع، ورغبتُنا في حلها، وطموحُنا في النهضة المنشودة، منطلقاتٌ للتواصلِ المنهجيِّ مع سير الأعلام، وللقراءة المتأملة لكتابات الرواد.

في هذا السياق يكون السؤال: **ما جدوى الاهتمام بشخصية الملك عبد العزيز ؟**

يرجع الاهتمام بشخصية الملك عبد العزيز إلى أسباب كثيرة؛منها أن في إبراز جوانب شخصيته ومشاهد من سيرته تجليةً – على نحوٍ مواز – لجوانبَ قدوةٍ تُتْبَع، ونموذجٍ يُحْتَذى، والأجيال الصاعدة –في مختلف أقطار الأمة –بحاجة إلى التواصل مع أعلام القدوة واستخلاص القيم النافعة من سيرتهم.

ونقاوم بمثل هذا الاهتمام – **في مؤتمر معني بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** - اضطرابَ معايير الإعجاب والاقتداء، واختلاط المفاهيم وتشوشها، وسيطرة الإعلام الترفيهي على الواقع الثقافي المعيش، مما باعد – على نحو ما– بين صلة قطاعات من الشباب بسير أعلام البطولة. وأَوْهنَ في أذهانهم الوعيَ بمعايير الاقتداء.

ذلك أن في تأمل هذا الجانب لدى الملك عبد العزيز رحمه الله وسيلةً للفت الأنظار إلى معالم قدوة ونموذج أمام الحكام والقادة في جانبيْن: الأول: **مطلق الاهتمام**؛ فلا يصح أن يكون النهوض بشئون المسئولية – مهما كان حجمها – صارفًا عن ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدعوى أن هذيْن الأمرين مهمة الدعاة وأن المسئولين والحكَّام هم أهل التنفيذ والقيام بالأمر؛ لقد كشف رصد هذا الجانب لدى الملك عبد العزيز رحمه الله عن اهتمام به باعتباره مقومًا جوهريًّا للتأسيس والقيام بتبعات الأمر.

والجانب الآخر للقدوة المشار إليها فيتمثل في **الكيفية والطريقة**؛ إذ جمع الملك عبد العزيز –كما سنرى – بين الحسم والحزم والمباشرة، وبين الرفق واللين والإيماء مما ضاعف من عمق التأثير ومدى النتائج والآثار.

وتنبع أهمية القدوة هنا من وجود المسئول على قمة القائمين على الأمر في مكانه، وفي بؤرة اهتمام المحيطين به والمتعاملين معه، فإن كان القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على يد الدعاة واجبًا فهو على المسئولين والحكام أولى وأوجب.

يشير محمد لطفي جمعة إلى هذا الجانب حين يقول : "وقد فهمت أن هؤلاء العرب على دين ملوكهم، ويتبعون أخلاقهم وسيرتهم فإذا كان الحاكم في الحجاز (وهي البلاد التي رأيتها) من خيار الناس

العادلين البعيدين عن المطامع كالملك عبد العزيز آل سعود كانت الحال في الشعب كذلك، وإن كان من الظالمين المتعنتين القساة الطامعين ... كانت الحال في الشعب كذلك".[1]

(٣)

وقد راجت عن الحكم السعودي أوهام مظنونة استحالت مع كثرة الترديد، وقلة التثبت ،وتوالي السنين،وكيد الحاسدين الحاقدين، إلى حقائق بدهية قارة فيما يتصل بالتعصب والتشدد، واتخاذ العنف والبطش سبيلا للدعوة، ولرد الناس إلى التمسك بالمعتقد القويم، والحرص على إقامة شعائر الدين.

في تأمل سيرة الملك عبد العزيز – رحمه الله – وهو الملك المؤسس – ما يبدد تلك الأوهام والمزاعم تبديدا، ويجلو – بوضوح وبساطة – الصحيح من الحقائق، وفي ذلك من الخير ما فيه من وجوه شتى حسبنا أن نذكر منها أننا نخلص واقعنا الثقافي من جدلٍ **"نظريٍّ"** سيّيء لنُهيبَ ببرهان **"عمليٍّ"** بيِّن.

وجلاء هذا الأمر له أهمية بالنظر إلى مكانة الملك عبد العزيز رحمه الله، وأهمية تأمل سيرته في الكشف عن الركائز التي قرت عليها جهوده في التأسيس، وإرساء الدعائم التي مضت عليها المملكة في عهده وعهود بنيه من بعده.

(٤)

وللاهتمام بهذا الجانب لدى الملك عبد العزيز رحمه الله دوافع؛ منها أن في تأمّلِ سيرته والوقوفِ على جوانب سياسته فهما للثوابتِ تقوم عليها المملكة العربية السعودية وفي هذا الفهم نفعٌ بالنظر إلى مكانة المملكة في نطاقها الإقليمي والعربي والإسلامي، ودورِها في نشر الإسلام وخدمةِ المسلمين منذ القدم وصولاً إلى عصرنا المعيش إذ يبذل دعاتُها جهودَهم النبيلةَ البارة في تعليم الإسلام ونشر الوعي بمنظومته الفكرية السمحة ؛القائمة على الوسطية والاعتدال بلا انحلالٍ أو تفريط ،وبلا تشددٍ أو تطرف.

إن في الاهتمام بالشأن السعودي اهتمامًا بشأن الدعوة على نطاق الأمة الإسلامية على اتساعها، من لدن الماضي المنصرم الغابر، وصولاً إلى الحاضر المعيش الماثل.

يشير محمد حسين هيكل إلى رعاية الحرمين في إكساب المملكة وقائدها هذه المنزلة الرفيعة يشكر المسلمون جميعًا في مختلف أقطار الأرض هذا الذي جعل الطريق إلى البلد الأمين أمْنًا وإلى بيت الله مِهادَ سكينة وسلام. [2]

---

(١) الأيام المبرورة في البقاع المقدسة –رحلة الحج والزيارة إلى الأراضي الحجازية في عهد الملك عبد العزيز آل سعود محمد لطفي جمعة مراجعة رابح لطفي جمعة ١٩٩٨ – ١٩٩٩م عالم الكتب ص ٣٢

ويتأكد الاهتمام بالعمق الإسلامي – على اتساعه – في إجابة الملك عبد العزيز على مقترحات وفد من الحجيج فيما يتعلق بالأماكن المقدسة وتطويرها؛ ":إنني شاكر لكم تفكيركم في أمر هذه الأماكن المقدسة، مقتنع بأن اجتماعكم ستكون له نتيجة متى عدتم إلى بلادكم.وغاية رجائي أن يبقى اتصالكم بعضكم ببعض من بعدُ ليتيسر الاستمرار في القيام بشيء مما فكرتم في القيام به.**ورجائي الأجلّ من هذا أن تكون هيئتكم أكثر تمثيلا للشعوب الإسلامية.**" (٣)

ولعله مما يؤكد أهمية التوجه إزاء هذا الموضوع بالرصد والتحليل والدرس أن كان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى الملك عبد العزيز ارتباط –في كثير من مظاهره ونتائجه–بمكة مهوى قلوب المسلمين في بقاع الأرض؛يشير إلى ذلك محمد لطفي جمعة مخاطبا الملك عبد العزيز:"إن جزيرة العرب التي دان لكم قاصيها ودانيها عن طيب خاطر ووضعت فيكم بعد الله رجاءها هي بمثابة المركز للإسلام والوطن الروحي لسائر المسلمين من سائر الأقطار ". (٤)

"وما كدنا نخطو إلى المسجد الحرام في طرق مكة المكرمة حتى لمسنا بأعيننا ومشاعرنا التفاف الشعوب العربية والإسلامية من أطراف الأرض حول هذه الدولة التي سهلت سبيل الحج لهم ولنا وإقرارها بالزعامة المحمدية وإحياء الشريعة السمحاء التي **سهر مليكها على إقامة حدود الله في بيت الله ووطن نبيه عليه أفضل الصلاة، وأقام نفسه وحكومته لمحاربة أسباب الانحطاط في العقائد والأخلاق بهذه الحركة المباركة المطهرة للدين من أدران الشرك لأوثان هذا الزمان**" (٥)

(٥)

وإن اتسع مجال النظر فسنجد أن في التواصل مع سيرة الملك عبد العزيز – من هذه الزاوية – أهمية بالغة في ظل الظروف التي تكتنف الأمة،وقد غدت فتنا ضيعت ظلماتُها تَبيُّنَ الحقيقة؛فقد بدا واقعنا المعيش حائرا بين شعوب تنشد الحرية،وحُكَّام يُخوِّفون من المؤامرات الأجنبية،وتوجّهات مضطربة غامضة تتجلى في أحداث يشتد إيلامها،ويجهل الناس أسبابها.

في النظر في سيرة الملك عبد العزيز ما يجلو ثوابت وركائز لا حيلة لنا في مواجهة ما نعانيه من فتن إلا بالتذكير بها، والتواصل معها، والحرص عليها.

---

(٢) محمد حسين هيكل : في منزل الوحي– الطبعة الثامنة – القاهرة– دار المعارف ١٩٨٦ص١٥٣

(٣) فقد آثر الملك عبد العزيز رحمه الله أن يكون الوفد أكثر تنوعا ليصبح أصدق تمثيلا للعالم الإسلامي هذا من زاوية الكم، أما من زاوية الكيف فقد غاب عن وفد المقترحين بعض ذوي المكانة والخبرة والدراية، ممن لم يغب عن الملك عبد العزيز الوقوف على أمرهم ونشاطهم، وهو ما يرينا درجة مرهفة من متابعة شئون الأمة ومعرفة جهود الأعلام من أبنائها. راجع السابق ١٥٤

(٤) من خطبة محمد لطفي جمعة في منى يوم عيد الأضحى بحضور الملك ورجال الدولة والسفراء وكبار الحجاج من جميع الأقطار –الأيام المبرورة في البقاع المقدسة ص ١٥٧

(٥) من خطبته في حضرة الملك – السابق ص ٩٩

والطريف أن لاح هذا البعد لبعض من مفكري الأمة من قبل – ممن شملتهم هذه الدراسة – ؛"لقد طفنا ببلاد الحجاز بعد أن ودعنا وراءنا عالما ليس فيه إلا صولة تناهض صولة، ودولة تبلع دولة، وأنظمة عراها تغيّر الإنسان فهي تحتضر، وأخرى تسرب إليها الضلال فهي تنتظر، والأمم بين أنصار هذه وأنصار تلك مواد تهلك في التجارب، وحطام تلتهمها الأغراض والمآرب، وأموال تنفق في العتاد، وأرواح تزهق في الصراع وآمال تذهب مع الرياح. فلما أقبلنا على هذه البلاد وجلنا فيها جولة بالجسد والروح فوجدنا السلام في المجتمع والأمن في الطرق والأمانة في الأيدي والوئام في الأسرة والكرامة في النفوس والسكينة في القلوب والرضا في العيش والثقة في الحاكم والأمل في الله. (٦)

وحسبنا هذه الإشارات الموجزة الدالة، وستجد في صفحات البحث ما يشرحها، وإزالة ما قد يكون في نفسك من ارتياب حول اتساق النتائج المذكورة مع المقدمات التي تفضي إليها. وإزالة ما قد يقع في نفسك كذلك من ظن باتجاه البحث وجهة المدح والإشادة، بديلا للرصد والدراسة!!

غاياتٌ ومادة

> **تمثل كتابة الرحلات نمطا "محايدا" يُفْترض أنه يسجل ويسرد في المقام الأول،وولاء المكتوب لما شاهده الكاتب ولفت نظره،وفيها – مع ذلك – مزية التحليل والتعليق وذكر الانطباع الشخصي،وذكر المعلومة مصحوبة بوجهة النظر**

يهدف هذا البحث إلى بيان ما بذله الملك عبد العزيز رحمه الله من جهد في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستخلاصُ معالم هذا الجهد –على نحو طامح إلى الاستقصاء والاكتمال– أمر لا يحتمله سياق هذه الصفحات؛ ولهذا فقد كان من الواجب التماس مادة محددة محدودة ،لها قدرتها – رغم تحددها ومحدوديتها – على بيان كثير من معالم هذا الجهد.؛ وتمثلت هذه المادة في نماذج مختارة من كتب الرحلات

ولأدب الرحلات أهمية ثقافية ومعرفية كبيرة؛"إذا قلنا إن فنا من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية أو أخرى من نواحي الحياة فإننا نقول إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد؛ إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافيا وعلماء الاجتماع والآثار ومؤرخي الآداب... فالرحلات

(٦) من خطبة محمد لطفي جمعة في حفل عشاء أقامه الملك عبد العزيز –السابق ص ١٠٩-١١٠

منابع ثرة لمختلف العلوم، فهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور "(٧)

وفي تأمل هذا البُعْد – بُعْد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – في أدب الرحلات أهمية من جوانب شتى؛ أولها: أن استخلاص أبعاد القضايا الشاغلة من هذا المصدر – على أهميته – لما ينل حقه من اهتمام الدارسين. ثانيهما: أن كُتَّاب الرحلات يفطنون أثناء زياراتهم وتسجيل انطباعاتهم إلى ما لا يدركه المقيمون بسبب الإلف والاعتياد فتكون لملاحظاتهم أهميتها وطرافتها، ثالثها: أن في هذه الكتابات حظا من الحياد؛ فكتابها غير سعوديين، ولهم من المكانة في أوطانهم ولدى جماهير قرائهم ما يمنعهم من المديح مجاملة !، وآخرها: أن في الالتفات إلى هذا الجانب رصدا ودرسا ما يكشف عن منزلة المملكة العربية السعودية في الأمة العربية والإسلامية. ودورها الذي شرعت تنهض به تجاه أمتها من لدن أيام الملك المؤسس.

وتمثل كتابة الرحلات نمطا "محايدا" يُفْترض أنه يسجل ويسرد في المقام الأول،وولاء المكتوب لما شاهده الكاتب ولفت نظره،وفيه – مع ذلك – مزية التحليل والتعليق وذكر الانطباع الشخصي،وذكر المعلومة مصحوبة بوجهة النظر؛يقول أحد كُتَّاب الرحلات بعد أن ذكر – صراحة – آراء "**شديدة**" التباين في الحكم على الملك عبد العزيز"ثم اجتمعتُ في البحرين برجل يرى غير ما يراه الفريقان،وهو أديب نجدي وهابي معجب بابن سعود،إلا أنه قليل الكلام فيه.سألته رأيه فقال:أنت ذاهبٌ إليه والراغب مثلك في الحقيقة يصم أذنيه ويفتح عينيه...رسخت هذه الكلمة في ذهني لأن قائلها مجرد عن الأهواء السياسية والمذهبية" (٨)

ويتجاوز الكاتبُ في هذه الحالة – حالةِ تسجيل الرحلة – المعتادَ الشائع، ويقتصر على البارز اللافت، وهو ما يُضفي أهمية على أبعاد الصورة المستخلصة من هذه الكتابات، ويكسب ما سجلته من إنجازات مصداقية واضحة.

وظهر هؤلاء الكُتّاب في كتاباتهم بشرا يحدثونك ويفضون إليك بخواطرهم وظنونهم،وقد تحدثوا عن الملك عبد العزيز،وتحدثوا إليه،بصراحة ووضوح،وهو ما يُبْعد غاية المدح والمجاملة عن كتاباتهم،وهي غاية كافية لأن ترد أي مادة متخذة للدراسة والبحث ردا!

ويتضح – بجلاء – أن غاية المدح لم تهيمن على المكتوب في مثل قول الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله:"ولقد ترك الحديث الذي دار بيني وبين ابن السعود تقديرًا للرجل في نفسي أكتفي عن بيانه برواية ما وقع

---

(٧) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب الطبعة الثانية- بيروت- دار الاندلس-١٩٨٣ ص ٦

(٨) أمين الريحَاني: مُلوك العَرب- الطبعة الثامنة - بيروت- دار الجيل١٩٨٧ص ٥٠٨

تاركًا لمن شاء أن يُبدي فيه من الرأي ما يشاء [٩] وقوله: "ولقد صدَّقت أحاديثي مع ابن السعود هذا الذي سمعت من حصافته وحسن رأيه" [١٠]

وفي هذه المؤلفات مزية مهمة؛ وهي أن أصحابها جميعهم قد أتيحت لهم فرصة لقاء الملك عبد العزيز رحمه الله، وقد سجلوا هذه اللقاءات، وتريك كتاباتهم حولها رصدا دقيقا، وانتباها مرهفا، وتحليلا عميقا.

ولبروز الحياد، والجانب الشخصي، والصراحة أثر في زيادة أبعاد الصورة المستخلصة للملك عبد العزيز رحمه الله من هذه الكتابات. "جئت ابن سعود والقلب فارغ من البغض ومن الحب **كما قلت له**. فلا رأي الانكليز، ولا رأي الحجاز، ولا الثناء، ولا المطاعن أثَّرت فيَّ. وها قد ملأ القلب، ملأه حبًّا في أول جلسة جلسناها على أن الحب قد لا يكون مقرونًا دائمًا بالإعجاب، سنرى، **قد عاهدته على أن أكلمه بصراحة وحريةوسأكون في ما أكتب كذلك حرًّا صريحًا**" [١١]

وتتسق كتابات "أدب الرحلات" مع انشغال البحث بالبعد الإنساني للملك عبد العزيز، الذي كان عليه المعول في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فالكُتَّاب في هذه الحالة لا يؤرخون ولا يدرسون، بل يعرضون بشكل تلقائي حر وقع شخصية الملك على نفوسهم، ويُقيِّمون – في حياد – ما يرونه من إنجازات. "لست أريد في ختام هذا الفصل أن أحكم لابن السعود أو عليه. وحسبي ما قصصت من هذا الحديث الذي رويته عنه [١٢] "وأفضيت بخواطري عنه إلى بعض السوريين من موظفي الحكومة العربية وإلى بعض الشباب العربي من أهل مكة، راجيًا أن أجد في حديثهم ما تكمل به في نفسي صورته". [١٣]

وقد أقبل هؤلاء الكتاب على رصد ما لاحظوه على شخصية الملك عبد العزيز رحمه الله، وما سجلوه من جوانب عطائه للمملكة والأمة مزودين بخلفية ثقافية واسعة، أكسبت أحكامهم التي توصلوا إليها دقة وإحكاما؛ وقد قارنوا بين ما رأوا وما عرفوا من أنماط أخرى في المجتمع والسياسة.

والكُتَّابُ المختارة كتاباتهم مادة للدراسة كُتّابٌ كبار كانوا على وعي بمنزلتهم في مجتمعاتهم ولهم مكانتهم ودورهم في الثقافة العربية، فهم يعلمون أن لهم قرَّاء كثيرين يقرأون ما يكتبون، ليحكموا لهم أو عليهم، ولا أدل على هذه المنزلة الرفيعة التي تبوأها هؤلاء الكُتّاب من استمرار أصداء كتاباتهم في الواقع الثقافي المعيش لدى مشتغلين في مجالات معرفية شتى وما زال لكتاباتهم دور متجدد في حياتنا الثقافية، وفي

(٩) في منزل الوحي ص١٥٧

(١٠) السابق ١٥٣

(١١) ملوك العرب ٥٢٥

(١٢) في منزل الوحي ١٦٦

(١٣) السابق ١٥٠

رصد معالم شخصية الملك عبد العزيز رحمه الله في كتاباتهم توسيع لدائرة التعريف به لدى قطاعات أوسع من القراء.

وهَؤلاء الكُتَّاب غير سعوديين، مما يبعد عن كتاباتهم مظنة المدح والإشادة بحكم الانتماء والولاء، ومما يصون ما رصدوه من إنجازات عن سلطان الإلف والاعتياد، فالإنجاز الهائل والتغير المحسوس يعتاده المواطن والمقيم فلا يكاد يلتفت إليه، لكن الزائر المرتحل ينتبه إليه، وقد قارن بين ما كان وما هو كائن.

كُتَّابٌ وكُتُب

> اشترك الزائرون في ملمح فكري يتعلق بالأمة – على رحابتها– هو الانشغال بالواقع المعيش واستشراف الغد المأمول ويبدو أن هذا الانشغال كان دافعهم للزيارة وتسجيل المشاهدات وحكي الأحاديث وذكر الانطباعات؛ولعله مما أكسب كتابتهم عمقا أن كان قلب المزور منطويا على ذلك الانشغال نفسه

(١)

ونقدم فيما يلي تعريفا مختصرا بأربعة الكتب التي تمثل مادة الدراسة، وإشارات موجزة تتعلق بتراجم أصحابها، بالقدر الذي يضع هذه الكتب، وما يستخلص من قراءتها، في إطارها التاريخي والثقافي من ناحية، ويطمئننا إلى صلاحية اتخاذها مجالا تتراءى عبره معالم شخصية الملك عبد العزيز، بما يمكننا من رصد تجليات اهتمامه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمين الريحاني (١٨٧٦ – ١٩٤٠)

أديب وباحث ومؤرخ لبناني، تنقل ما بين لبنان ومصر وأمريكا، له مقالات سياسية وفكرية وأدبية، وترجم مختارات من شعر الشاعر أبي العلاء المعري إلى الإنجليزية، واتصل بأبرز الأدباء والزعماء السياسيين في الدول التي زارها، وباحثهم في مختلف أحوال الشرق العربي، عرفت عنه حماسته إلى الدعوة إلى الحرية ومهاجمة الخنوع والجهل، اشترك عام ١٩١٨ في مؤتمر انعقد في واشنطن للحد من التسلح.

ومن أهم مؤلفاته: الريحانيات، زنبقة الغور، ملوك العرب، تاريخ نجد الحديث، المغرب الأقصى، قلب العراق، التطور والإصلاح، أدب وفن، أنتم الشعراء.

انطلق عام ١٩٢٢ في رحلته الشهيرة فزار الحجاز،ويتضمن كتابه مشاهداته وانطباعاته عما رأى في بلاد الحجاز ،ويسجل لقاءاته مع الملك عبد العزيز، ويتضمن الكتاب معلومات تاريخية قيمة استقاها من الملك عبد العزيز، وأخضع ما كتبه لمراجعة دقيقة.ويتميز حديثه في الكتاب بالصراحة والوضوح وعرض ما يسمعه على المشاهدة والتثبت.

شكيب أرسلان (١٨٦٩ – ١٩٤٦)

كاتب وأديب ومفكر لبناني، لقب بأمير البيان، جمع بين الاهتمام بالسياسة، والإبداع الأدبي شعره ونثره، كانت له أسفار متعددة سجلها في كتبه، عرفت عنه حماسته للوحدة العربية وفي كتاباته دعوة إليها، وتقييم لواقع العالم العربي والإسلامي، وفضح لمؤمرات المستعمرين.

ومن أبرز كتبه: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، الحلل السندسية في الاخنار والآثار الأندلسية، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، شوقي أو صداقة أربعين سنة، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم.

ويسجل الكتاب رحلة شكيب أرسلان التي قام بها عام ١٣٤٨، ويتضمن الكتاب وصفا مفصلا للطائف التي زارها لمرض ألم به أثناء رحلته، وفيه ذكر لجوانب تاريخية مهمة عن الجزيرة العربية،ووصف لطرقها ومعادنها ومناخها، وقد حوى مقارنات بين ما شاهده للكاتب من أمارات استقرار الأمن في عهد الملك عبد العزيز وما كان عليه الأمر من قبل، وقد تضمن اقتراحات تتعلق بتحسين سبل الحياة في الحجاز.

محمد لطفي جمعة(١٨٨٦ – ١٩٥٣)

كاتب ومترجم وروائي، كان موسوعي المعرفة، ويجيد العديد من اللغات، كما أنه أحد كبار المحامين والناشطين السياسيين المصريين في عصره.

ولد محمد لطفي جمعة بالإسكندرية عام ١٨٨٦م، لأسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى،نال شهادة الابتدائية من المدرسة الأميرية ،ثم انتقل إلى القاهرة ليحصل من المدرسة الخديوية على شهادته الثانوية، سافر بعدها إلى بيروت ليلتحق هناك بالكلية الأمريكية لدراسة الفلسفة، كما حصل بعد عودته للقاهرة على إجازة مدرسة المعلمين. بالإضافة إلى ذلك نال جمعة درجة الدكتوراه من كلية الحقوق بليون في فرنسا عام ١٩١٢م، وقد عمل جمعة في بداية حياته مدرسًا

بعد حصوله على إجازة المعلمين وذلك لمدة ثلاث سنوات، ثم قام بعدها بتدريس مادة القانون الجنائي في الجامعة المصرية.

كانت له جهود في الكفاح السياسي ضد الاستعمار، على صعيد العمل السياسي والنشاط الحزبي، وكذا على صعيد العمل الصحفي فكان لطفي جمعة يكتب في معظم الدوريات والمجلات والجرائد العربية التي تصدر في عصره .

كان جمعة داعيةً للحوار الحضاري، والتعاون بين الأمم في مجال العمل والثقافة والعلم، وكان من المنادين بمجانية التعليم،وأرَّخ للفلسفة الإسلامية ،و ألَّف الكثير من الكتب في العديد من الحقول المعرفية؛ كالأدب والفلسفة والتاريخ، بالإضافة إلى ترجمته للعديد من الكتب الشهيرة في الحضارة الغربية، ككتاب الأمير لميكيافيللي، والواجب لجون سيمون، ومائدة أفلاطون وغيرها من الكتب الأخرى.

و"كتابه الأيام المبرورة في البقاع المقدسة" كتاب في أدب الرحلات، يستعرض فيه الكاتب الكبير محمد لطفي جمعة رحلته إلى الأراضي الحجازية التي قصدها بغرض تأدية شعائر الحج وزيارة المدينة المنورة، وذلك في أسلوب شائق وممتع. وقد وصف المؤلف رحلته منذ وصوله إلى مكة المكرمة، ودوّن خواطره وانفعالاته النفسية، وتأملاته العقلية عند كل بقعة من البقاع التي مر بها، وعند كل شعيرة من الشعائر التي أداها في هذه الرحلة؛ ولهذه الرحلة ما يميزها عن غيرها من الرحلات التي دوّن أصحابها انطباعاتهم فيها عن هذا المكان وذاك الزمان، وهو لقاء لطفي جمعة بالملك عبد العزيز ونائبه الأمير فيصل الذي أصبح فيما بعد ملكًا للسعودية، وحضوره في ضيافتهما، وتدوينه لما دار في هذا اللقاء. إن هذا الكتاب —— برغم لغته الأدبية الرفيعة —— لا يمكن حصره في إطار أدبي مقصور على البعد الوجداني والانطباع الذاتي للمؤلف، ولكنه أيضًا يعد مصدرًا من المصادر التاريخية الهامة التي تتناول فترة من حكم الملك عبد العزيز للسعودية.

محمد حسين هيكل (١٨٨٨ – ١٩٥٦)

كاتب وأديب وسياسي مصري، درس القانون في فرنسا، وعمل بالمحاماة واشتغل بالسياسة، له كتابات أدبية وصحفية، تولى وزارة المعارف مرتين، ووزارة الشئون الاجتماعية،

ورأس مجلس الشيوخ، مثّل مصر في التوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية، كما رأس وفد مصر في الأمم المتحدة أكثر من مرة.

ومن أبرز ما كتب: رواية زينب، حياة محمد، في منزل الوحي، الفاروق عمر، الصديق أبو بكر، عثمان بن عفان، عشرة أيام في السودان، مذكرات في السياسة المصرية، ولدي

ويسجل الكتاب رحلة محد حسين هيكل التي قام بها عام ١٣٥٥، وذهب مؤلف المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية إلى أن هذه الرحلة من أطول الرحلات وأكثرها فائدة، فقد جمعت تقريبا —كل الفوائد التي ذكرت في الرحلات السابقة، وزادت عليها بالتحليل العميق للمشكلات التي كان يعاني منها الحجاز آنذاك ... وقد تضمنت أفكارا وآراء ومقترحات قوية دالة على مقدار علم الرجل وفهمه وذكائه وحسن تصوره للمسلمين واقعا وكما ينبغي أن يكون"[١٤]

(٢)

والناظر فيما قدمناه من معلومات حول الكُتّاب وما كتبوا،وما أحلنا إليه من مراجع تحدثت بإسهاب عنهم[١٥] يستوقفه ارتفاع المكانة،وعظم التأثير،ولا نقيس الجانبين بالشهرة وذيوع الصيت، وإنما بالهم الشاغل، والمحرّك الباعث.

يشترك الأربعة في الانشغال بواقع الأمة،ورصد مشكلاتها وهمومها المورقة،وتلمس الحلول وسبل النجاة،وتقديم رؤية لمستقبلها،وقد عانى الجميع في سبيل ذلك، فبذلوا جَهْدا وتحملوا جُهْدا،وفيما أثبتناه من سيرهم ما يطلع على ذلك.

---

(١٤) محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف:المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية—دار الأندلس الخضراء—جدة— ٢٠٠٠ ص٣٢

(١٥)راجع في التعريف بالكتّاب وكتبهم:أحمد الشرباصي:شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام— القاهرة –المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩٦٣م،جميل عويدات :أعلام نهضة العرب في القرن العشرين،الطبعة الأولى، ١٩٩٤،ص(٤٧)حسين فوزي النجار:الدكتور محمد حسين هيكل مفكرا وأديبا،دار المعارف بمصر،سامي الدهان:الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره–القاهرة—دار المعارف١٩٦٠صالح زهر الدين:رجالات من بلاد العرب–الطبعة الأولى– بيروت –المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ٢٠٠١، ص(٩٣،٨١)..عيسى ميخائيل سابا : (أمين الريحاني)، الطبعة الثالثة ، القاهرة، دار المعارف، ص(٢٧،٢٥:٤٧:٢٩)،.،محمد دكروب :خمسة رواد يحاورون العصر)، الطبعة الأولى ، بيروت —دار الكلمة، ١٩٩٢، ص(١٣،١٢)،موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين– الطبعة الأولى– بيروت –المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١، ص(٤٧١،٤٧٦). محمد لطفي جمعة :مذكرات محمد لطفي جمعة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سلسلة تاريخ المصريين – الجزء الأول ١٤٧–١٤٨–١٤٩ يحيى حقي، ناس في الظل وشخصيات أخرى – الهيئه المصرية العامه للكتاب، ١٩٨٤: القاهره– فصل محمد لطفي جمعة

ومن هنا نفهم "خلفية" حديثهم عن الملك عبد العزيز رحمه الله، فقد رصدوا سمات شخصيته ووضعوا أيديهم على سياسته في حكمه، وسجلوا جوانب من جهده التنموي صدورا عن شواغلهم التي أشرنا إليها.

وقد تبلور ذلك في سمتين "العمق ودقة الملاحظة"، و"الحياد والصراحة والمواجهة"، أما السمة الأولى فتتضح في دقة الوصف والالتفات إلى التفاصيل الصغيرة، وإخضاع ما يُرى – مهما كان بسيطا – للتحليل ومساءلته عن الدلالات.

والسمة الأخرى تظهر في عرض وجهات النظر المتعارضة إلى حد التقابل، وعدم القفز إلى النتائج دون تلبث متأمل إزاء المقدمات المفضية إليها.

ولم يكن الملك عبد العزيز نفسه بمعزل عن هذا الانشغال المؤرق بقضايا الأمة، واستشراف آفاق مستقبلها، ولهذا لا نعجب من صراحته حين يجيب عن أسئلة، وسماحته وحلمه حين يجهر زائروه بما يظنون أنه يُغْضب ويسوء ! ومطالبته لهم أن يسألوه عما شاءوا، أو أن يعرضوا وجهات نظرهم فيما يجري فيه الحديث.اسمعْ إلى قول الملك عبد العزيز رحمه الله لـ " حضرة الأستاذ" أمين الريحاني

"– ما رأيك يا حضرة الأستاذ ؟لا تقل لي أن لا دخل لك بالسياسة، وأن سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط. "حنا" نفهم.ومرَّ يده على لحيته وهو يبسم بسمته الخلابة.لاتخدعنا يا أستاذ.لا تغزل عندنا في المقاصد والكلام. أصدقنا الخبر...أبغي نصيحتك.تكلم ويكفي أن تقول رأيي تسدا (كذا) ولا جرم فنقبله منك. ولكني كلمتك بالحرية وأبغي منك مثلها... فما رأيك يا صديقي الأستاذ ؟ [١٦]

وإلى قوله:

– لك الحرية يا حضرة الأستاذ أن تتكلم معي بكل حرية.ولا أقبل منك غير ذلك.وأنا أكلمك بكل حرية.ولا تتوقع مني غير ذلك. [١٧]

وإلى شهادة أمين الريحاني:"في الستة أسابيع[١٨]●) التي أقمتها في الرياض كان السلطان يزورني في منزلي كل ليلة فنتباحث في مواضيع شتى، نجدية وعربية وعامة، وهو دائمًا في حديثه فصيح صريح. ليت شعري أية صراحة أبهر مما تقوم ومما سأذكر ؟ إن السلطان عبد العزيز مثل كل رجل كبير لا يخشى أن يقال فيه أن عمله اليوم يناقض عمله بالأمس، وأنه في السياسة غيره في الدين. فهو في حكمه البلدان التي

---

(١٦) ملوك العرب ٥٤٤

(١٧) السابق ٥٢٣-٥٢٤

● كذا في الكتاب والصواب ستة الأسابيع

امتلكها والعشائر التي تغلب عليها يراعي شؤون أهلها الخاصة من مذهبية ومحلية. ويندر أن يؤمر فيها من هو من غير أهلها". (١٩)

وعلى هذا فالكتب الأربعة ذات بعد ثقافي فكري لافت؛ فهي أبعد ما تكون عن غاية التسلية والتلهية، أو المباهاة بكثرة المشاهدات وتعدد الرحلات، أو استحضار غاية المدح والثناء بما يورط في تملق مفضوح!

لقد اشترك الزائرون في ملمح فكري يتعلق بالأمة – على رحابتها- هو الانشغال بالواقع المعيش واستشراف الغد المأمول ويبدو أن هذا الانشغال كان دافعهم للزيارة وتسجيل المشاهدات وحكي الأحاديث وذكر الانطباعات؛ولعله مما أكسب كتابتهم عمقا أن كان قلب المزور منطويا على ذلك الانشغال نفسه.

مَلَكاتٌ وركائز

"والآن أنا بذمتكم وأنتم بذمتي.إن الدين نصيحة.وأنا منكم وأنتم مني.وهذه عقيدتنا في الكتب التي بين أيديكم.فإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه"

الملك عبد العزيز في يوم البيعة

(١)

هل جاء اهتمام الملك عبد العزيز ببعد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونهوضه به لمطلق مكانته ملكا محبوبا وقائدا مُؤسِسا؟ الناظر فيما سجله كُتَّابُ الرحلات – ممن شملتهم الدراسة- يفطن إلى أن ثمة مقومات وملكات ساعدت على النهوض بالامر ، وجعلَتْ لما وجّه اليه رحمه الله من أمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المنكر- مما سنفرد له مبحثا مستقلا فيما بعد- موقعا في القلوب وتقبلا في العقول .

وتتمثل هذه الملكات في شيمٍ وسجايا،وتصرفاتٍ وسلوكيات تبلور في مجموعها"ذكاء اجتماعيا"تواصل به – رحمه الله –مع المحيطين به فأمكنه التأثير فيهم من ناحية،وغدا لكلامه -توجيها وإرشادا- صدى طيب من ناحية أخرى .

وسنخصص هذا المبحث لبيان تلك الملكات ليكون الوقوف عليها منطلقا لرصد تجليات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في مبحث تال.

(١٩) السابق ٥٨٥

ومن هذه الملكات "**البساطة والتواضع**" ؛ففي مقابلته الناس من رعيته"بساطةبدوية" ؛ "فلما ذهبت ثاني يوم العيد إلى تشريفته بمنىً وألفيته يقابل الناس جميعًا،من عرف منهم ومن لم يعرف،ويقابلهم ببساطة بدوية لا شيء من التكلف فيها،ازددت عجبًا منه وإعجابًا به."(٢٠)

وينضاف إلى البساطة البدوية الدالة على التمسك بالهوية أمارات العدل والمساواة، ومظاهر الإقبال على التواصل مع الرعية دون اعتبارات تحجب الحاكم عنهم،أو معايير تفرق بينهم فلا اسم ولا جنس ولا أي سؤال يتصور أن يحول بين حاكم محبوب ورعية محبة.وهذه البساطة البدوية،ببعدها الثقافي،تسمو – وهي المرتبطة بالهوية العربية – على مفهوم الديمقراطية–وهي المفهوم المتبلور في الغرب–؛فالديمقراطية تطأطئ أمام هذه البساطة البدوية إكبارا وإجلالا!"والذين يذهبون لحضور التشريفة ينتظرون قبل الدخول على الملك في خيام أقيمت أمام القصر.وليس في هذه الخيام دفاتر يكتب الناس أسماءهم فيها؛ولا يسأل أحد من الجند ولا من حاشية الملك أحدًا من الذين قصدوا إلى التشريفة عن اسمه أو جنسه أو أي شيء من أمره.ويقوم الناس من الخيام فوجًا بعد فوج دون اعتبار للطوائف أو لغير الطوائف.فإذا بلغوا باب القصر ارتقوا أربع درجات تؤدّي إلى باب هو باب الغرفة التي يستقبل الملك فيها...أما النجديون فلا يزالون كما كانوا يهزّون يد عاهلهم ويسمونه باسمه ويحيونه بتحية الإسلام،فيقول له أحدهم:كيف حالك يا عبد العزيز؟فإذا أرادوا المبالغة في التحية أطلقوا عليه لقب"طويل العمر"ويمرّ المهنئون بالملك،ويشرب المقرّبون قهوته النجدية،ويلقي بعضهم أمامه القصائد والخطب؛كل ذلك في بساطة بدوية تطأطئ أمامها الديمقراطية إكبارًا وإجلالا" (٢١)

ومن الجوانب المهمة من هذه الملكات **الحفاوة بالزائرين**(٢٢)

ونجد أمارات دالة على ذلك في حديث محمد حسين هيكل عن التقائه – لأول مرة – ب"عاهل العرب"وتقدّمتُ؛ فوقف عاهل العرب ومد إليّ يده الضخمة فحيَّاني وأشار إلى مقعد بجانبه فجلس وجلست، ... وبدأ جلالته الحديث بقوله:

– لم أقابلك من قبل ولكنني أعرفك.

واغتبطت لهذه التحية الرقيقة التي لم تكن تتفق مع ما يبدو على وجه الرجل في هذه اللحظة من اشتغال باله":(٢٣)

---

(٢٠) السابق ١٥٠

(٢١) السابق ١١٣-١١٤

(٢٢)مما يبرز هذا الجانب الرسالة التي ارسلها الملك عبد العزيز رحمه الله إلى أمين الريحاني قبل زيارته وأثبت نصها كاملة في كتابه ملوك العرب معلقا عليها بقوله ص٥١٠:" هذا أول كتاب جاءني من السلطان عبد العزيز، نشرته لتظهر حقيقة فيه أثبت الخبرُ خبرها فيظهر أن الرجل لا يتكلف اللطف والتواضع، لأنهما من خلاله الفطرية "

(٢٣) في منزل الوحي١٤٨

لم يحل "اشتغال البال" دون توجيه التحية وتلمس مفاتيح الشخصية، والعمل على اكتساب القلوب.

ومن هذه الملكات التي تُكْسِب القلوب الذكاء وسرعة البديهة والدعابة التي تتطلب هذا الذكاء إن في الرجل ضميرًا حيا كحلمه وسرعة خاطر تقارن التيقظ في ذهنه يبدد بكلمة غيوم الانقباض في مجلسه، ويجلو أفقًا قد يكون الاضطراب فيه من كلامه. وهو خفيف الروح، حلو النكتة، لطيف التهكم. [٢٤]

ومثل هذه الشخصية لا تفوتها "التفاصيل الصغيرة" التي يحرص عليها أصحاب الذكاء الاجتماعي فيكسبون بها القلوب، ويثيرون بها الإعجاب؛ فمن ذلك **تقريب الضيوف**"[٢٥] **والاهتمام بهم** "وعندما جئنا الرياض،وبدا من عظمة السلطان ذاك التعطف الخاص الجميل،فانزلني في القصر وكان يشرف منزلي كل ليلة بعد صلاة المساء، "[٢٦] **وعدم إرهاقهم** ثم قال: ولا نثقل عليك الليلة وفيك تعب يدعو إلى النوم.[٢٧]**وبث الطمأنينة في قلوبهم وتفقد أحوالهم وقت مرضهم**"نعم خفت مرة في الرياض وأحسست لأول مرة في رحلتي أني في الغربة، بعيد عن بلادي وأهلي، بعيد عن أسباب الصحة والشفاء،وعن الأطباء.بيد أني في تلك المحنة كنت أتعزى بما عاضني الله من صداقة رجل نجد الأكبر سيد البلاد والمكارم. فكان يعودني كل يوم ويجيء كل مرة بشيء يخفف سورة الحمى.

– هل أكلت الكنكينا يا صديقي الأستاذ؟ هذا شراب يبرد الدم.خذ منه الآن. ولكني في العقاقير كلها والمرطبات ما وجدت ما ينعشني مثل ابتسامة السلطان ومصافحته وكلماته."[٢٨]

وبهذا الذكاء الاجتماعي اكتسب الملك عبد العزيز قلوب الناس، واستطاع أن يحيل الخصوم والأعداء إلى موالين وأنصار،مما يضرب المثل للحكام حين يحسنون بالمودة واللفتة الطيبة معاملة المحيطين بهم؛ فتنطق ألسنة الجميع تشهد بالفضل وتعترف بالجميل.[٢٩]

ويرتبط الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بما اتسم به الملك عبد العزيز رحمه الله من جمع بين اللين والشدة والرفق والحزم؛...وله عينان عسليتان تنيران أماكن العطف واللطف ساعة

---

(٢٤) ملوك العرب ٥٣٤-٥٣٥

(٢٥) انظر أمثلة دالة على ذلك الارتسامات اللطاف ١٢ وفي منزل الوحي١٥٠،١٥٦، ١٦٣ ، ١٦٤ و ملوك العرب ٥٢٢

(٢٦) تاريخ نجد الحديث ٢

(٢٧) ملوك العرب ٥٢٤

(٢٨) السابق ٥٨٩

(٢٩) انظر أمثلة دالة على ذلك في منزل الوحي١٠٢،١١٣، ١٦٤ وملوك العرب ٥٧٧-٥٧٨

الرضى،وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا. وله فم هو كورق الورد في الحالة الأولى،وفي الحالة الثانية كالحديد.يتقلص فيشتد، فهو إذ ذاك كالنصل حدًّا ومضاء.

أجل إن ابن سعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير. فيذهب العطف من ناظريه، ولون الورد من شفتيه. ثم في افتراره يستحيل النور نارًا بيضاء فهو إذ ذاك رهيب. (٣٠)

(٢)

وثمة ركائز يرتبط الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بقرارها في النفس واستقامة الوعي بها؛وعلى رأسها **الدين والشرف**؛"وكان السلطان فينا...أفصحنا في لغة الحكمة والورع لسانًا:"حنا" أهل نجد نبغي المحافظة قبل كل شيء على أمرين:ديننا وشرفنا.(٣١)

وقد كشف عن ذلك في حديثه المطول مع الدكتور محمد حسين هيكل:"نحن لا فضل لنا في شيء من هذا وإنما الفضل كله لله....ولقد عمل آبائي منذ عشرات السنين ليقرّوا التوحيد الصحيح وحكم الكتاب الكريم في هذه الربوع التي انبعث منها نور التوحيد؛فرأيت هذه الدعوة خير ما أقوم به وما أقيم على أساسه جهادي. (٣٢)

ويرتبط تحرك الملك عبد العزيز وجهده المبذول في التأسيس بتغيير المنكر انطلاقا من الوعي بثوابت الدين على نحو ما يبين في كلمته التي ألقاها على بعض الوفود وأثبتها محمد لطفي جمعة"لما قمنا بهذه الدعوة إلى الله ما كنا نرجو إلا الله ولا نخاف إلا هو،...والحقيقة أننا لم نخرج إلا على الأهواء الفاسدة،التي اخترعها الناس في الدين،وما قمنا إلا لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر،ولا نريد من الناس إلا أن يؤمنوا بالله وحده"...ثم قال إنه لا يهمه الملك، وأن الحب ينصرف كله إلى رسول الله،وهو أعز عليه من ماله وولده ونفسه وملكه،وحبه مفروض من الله علينا،ثم تكلم عن حالة المسلمين وعن اجتماع كلمتهم وتأييدهم حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه في الصدر الأول من الإسلام.(٣٣)

ويصرح بهذا المعنى في موقف آخر"...ونهض الملك وصافحنا وتحدث إلينا وسمعت أقواله وهو يتكلم بصوت رقيق فقال"نحن لا يهمنا شيء غير طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد□،وقد ضحينا بكل شيء في سبيل إعلاء كلمة الحق ورفعة شأن المسلمين".(٣٤)

ولا يتصور الملك عبد العزيز الحكمَ إلا مرتبطا بالتمسك بمنظومة تعاليم الدين وأحكامه ؛ مما يرتبط بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ارتباطا وثيقا ؛"إن الذي يهمنا في هذه الحياة هو إعلاء كلمة الله،

(٣٠) ملوك العرب ٥٣٣-٥٣٤

(٣١) السابق ٥٢٩

(٣٢) في منزل الوحي ١٥٧-١٥٨

(٣٣) الأيام المبرورة في البقاع المقدسة ص ٩٧

(٣٤) السابق ص ٩٧

وهذه الألقاب التي يستعملها الناس من ألقاب الملوكية وأمثالها من المخترعات ليست محببة إلينا، وإنما المحبب إلينا أن نكون عبادا لله، وأن نبذل أنفسنا وحياتنا في سبيل الله ، ...ونحمد الله أن أظهر الحق وأبان للناس ما نسعى إليه ولقد أعطانا الله من الدنيا الشيء العظيم لا بحولنا ولا بقوتنا وإنما بحول الله وقوته، فالواجب يقضي علينا **أن نشكر أنعم الله** و**نقوم بالنصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين**، وأن نوصي بذلك أبناءنا من بعدنا ولا نبالي بما يصيبنا في سبيل ذلك...فالله سبحانه وتعالى لا يعصي إلا بعلمه ولا يطاع إلا بإذنه. (٣٥)

أقول إنه مادام الله معنا فلا نبالي بأحد ونحن نحب آل بيت رسول الله ونشهد الله على حب من قام بأمره، وأما من عمل ما يخالف أمر الله ويخالف أوامر جده فلا نحبه ونشهد الله على بغضه... وليس لي مقصد في هذه الحياة إلا السعي لإعلاء كلمة الله ".(٣٦)

ولهذه المحبة القارة في القلوب للرسولﷺ وآل بيته كانت الوفود المشاركة تذكر – في كلماتها–بسيرته ومكانته؛" إن حياة النبي ملأى بالعبرة والمواعظ والحكم، التي لم تتح لنبي آخر في حياته ولا بعد مماته. وإن التحدث في تلك الحياة العامرة المباركة التي قضاها الرسول في خدمة ربه وشعبه بل شعوب الأرض جميعا، لتحلو لي في هذه الليلة السعيدة بمسمع من الملك العظيم الذي يحب محمدًا أكثر من حبه نفسه وأهله ونور عينيه كما سمعت منه بأذني ولا سيما في هذا البلد المكرم مكة المكرمة مهبط الوحي أولاً ومقر البيت العتيق، التي لا نخطو في طرقها وشعابها ودروبها خطوة إلا ونتنفس الهواء الذي تنفسه رسول الله وتقع أقدامنا على مواطئ قدميه الشريفين، ونصلي بالمسجد المحرم فنضع جباهنا موضع جبهته الشريفة وتلك نعمة لا تقدر بمال ولا حياة، وسعادة لا تقاس بها سعادة أخرى. (٣٧)

(٣)

والحق أن ليوم البيعة الذي كان في مكة عند باب الصفا أهميته في تقديم كثير من تلك الإشارات ونص البيعة ذو دلالة على ركائز السياسة الداخلية وضوابطها،ومنابعها التي تصدر عنها وتوجهاتها؛"بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده.والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. نبايعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود على أن تكون ملكًا على الحجاز على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم،والسلف الصالح والأئمة الأربعة رحمهم الله،وأن يكون الحجاز للحجازيين،وأن أهله هم الذين يقومون بإدارة شؤونه،وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز،والحجاز جميعه تحت رعاية الله ثم رعايتكم"(٣٨)

---

(٣٥) السابق ص٩٧– ٩٨

(٣٦) السابق ص ٩٨

(٣٧) من خطبة محمد لطفي جمعة في حفل عشاء أقامه الملك عبد العزيز – السابق ص ١٠٨

(٣٨) تاريخ نجد الحديث وملحقاته : أمين الرّيحاني الطبعة الأولى المطبعة العلمية ليوسف صادر . بيروت ١٩٢٨ ص٣٨٩

فالسياسة الداخلية تقوم على الثوابت التي ينص عليها الكتاب والسنة، ويدل عليه حال الصحب الكريم والسلف الصالح، وأن يكون حكم الحجاز متسقا مع مكانتها ومنزلتها عند أهلها.

وقد أَعْلَنَ الملك عبد العزيز رحمه الله أُسسَ سياستِه، وكشفَ عن صدورها عن الكتاب والسنة،**وجعل القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر** ركنا منها؛مادام ذلك ابتغاء الحق؛فقال:"والذي أبغيه في هذه الديار أن يُعمل بما في كتاب الله وسنة نبيه في الأمور الأصلية.أما في الأمور الفرعية فاختلاف الإئمة فيها رحمة،إلى أن قال:"والآن أنا بذمتكم وأنتم بذمتي.**إن الدين نصيحة**.وأنا منكم وأنتم مني.وهذه عقيدتنا في الكتب التي بين أيديكم.**فإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه**،وسلونا عما يشكل عليكم فيها.والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنة.إذا كان هذا مقبولا عندكم تعالوا نبايع على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده"(٣٩)

ومن ركائز الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تحري العدل ومن أسباب ذلك دقة المتابعة والالمام بالتفاصيل؛على نحو مما نجد من موقفه من الرجال المحيطين به "والسلطان عبد العزيز أمامهم في كل شيء. فهو يعرف الشجاع فيهم والتقي والصبور والعاقل والمجنون، ويحسن سياسة الجميع". (٤٠)

ولهذا فهو يتابع بنفسه ويراقب- رحمه الله- باذلا جهدا شاقا وقد تحمل الكبيرة والصغيرة ابتغاء العدل؛فمن عاداته في السفر التي ذكرها أمين الريحاني أنه "يحمل ناظورًا كبيرًا لا غنى له عنه. فهو دائمًا يراقب من مجلسه حركات رجاله وخدامه حتى أنه لا تمر غيمة في الأفق إلا رفع إليها الناظور متيقنًا متثبتًا — "أمرنا مُشكل يا حضرة الاستاذ. علينا الكبيرة والصغيرة. فإذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشؤوننا ... **العبد والأمير، عيننا على الاثنين حتى ننصف دائمًا الاثنين ونعدل بينهما**". (٤١)

"كان إذ ذاك يراقب قافلة أناخت عند خيمة المونة تحمل إلينا الخضر والماء من الإحساء. فأمر أن يحضُر قيمها، فسأله سؤالاً بخصوص جمل من الجمال، فقال القيم: هو حرون يا طويل العمر. فأجابه السلطان: اتركه يرعى مع الجيش(٤٢) لا ترجعه معك.

ثم عاد إلى حيث وقف في الحديث فاستأنفه قائلاً: العدل عندنا يبدأ بالبل — الإبل — **ومن لا ينصف بعيره يا حضرة الأستاذ لا ينصف الناس**. (٤٣)

---

(٣٩) السابق ص ٣٣٩

(٤٠) ملوك العرب٥٧١

(٤١) السابق ٥٣٦

(٤٢) الجيش تطلق على مجموع الإبل من ركائب ومحملات.(البيان لأمين الريحاني)

(٤٣) السابق ٥٣٦

ولهذا فإن ثمة حسما فيما يتصل بالحقوق" لا نتنازل عن شيء من حقوق أجدادنا...دعهم يغزلون فإننا لا نتحول عن جادة الحق.ووجه هذا الضحى،لا نعمل عملاً ولا نقول كلمة فيها ظلمة أو غموض.ولا نطلب غير حقوقنا ولا نخاف غير الله...أنا ابن السعود لا أعرف غير الجادة القويمة ولا أقول غير الحق (٤٤)

"مثال ذلك ما حدث في الشامية بالعراق ...باهل الارطاوية ذاقوا من هول الإخوان ما لا ينسونه حياتهم.ولنا في ما حدث في الجوف السنة الماضية مثال آخر. غير أن عذر إخوان الجوف كان واهيًا فلم يقبله السلطان عبد العزيز. بل أمر بالقبض على رؤساء تلك الغزوة وباحضارهم مقيدين إلى الرياض حيث سجنوا ثلاثة أشهر.

وكان مما قاله لهم – مما أثبته أمين الريحاني – يوم أطلق سراحهم "قيمتكم يا إخوان في طاعة الله ثم طاعتنا.فإذا تجاوزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم.أي بالله،...والسيف لا يزال بيدنا إذا كنتم يا إخوان لا ترعون حقوق الناس.... أما إذا أعدلتم وعقلتم فحقكم بشرع الله خذوه من هذا الخشم – وضرب بالسبابة أنفه –وحقي آخذه منكم دائمًا بإذن الله... وإني والله أعمل بكم السيف إذا تجاوزتم حدود الله". (٤٥)

وقد أدت هذه السياسة إلى أن تمثل المملكة نموذجا مشرفا للإسلام على مستوى العالم؛فيما يظهر في تقييم محمد لطفي جمعة ؛" ولعل الرجل القانوني إذا حاول شرح نظام الحكومة الحجازية،يجد بعض الصعوبة من الوجهة الدستورية،ولكن القوم اجتهدوا في التوفيق بين القديم والحديث،وأبقوا ما كان صالحًا، وعدلوا ما يقبل التعديل،وأقاموا حدود الله،واختاروا لحكومتهم رجالاً أكفاء،يخافون الله ويهابون الملك ويحاسبون ضمائرهم،وفي هذا القدر كفاية لإجراء العدل،ولم يبالغوا في المحافظة على الصور والأشكال بقدر المحافظة على الجوهر واللباب. " (٤٦)

ويقول مخاطبا الملك عبد العزيز "وقد اتبعتم سنة الله في الترقي، فلم تحرموا الفقير من بهيمة الأنعام ولم تمنعوا امتطاءها في طول الجزيرة وعرضها وهي سفينة الصحراء بل أضفتم إليها ما أخذته الحضارة من وسائل النقل السريع المنظم وأصبحت وديان الجزيرة ودروبها تجمع بين مظاهر شتى من خيرات الله وخلائقه وثمرات اختراع الفكر الإنساني. وهكذا ثبت للعالم أن أبناء هذه البلاد الكريمة العتيقة جديرون بنهضة الإسلام والسير به في طرائق الترقي والإقدام،فلم تعرف دولتكم من يوم جلوسكم على العرش رجوعًا إلى الوراء ولا سير القهقري بل كانت خطتكم وخطة حكومتكم وشعاركم "إلى الأمام! إلى الأمام!"،وقد جعلكم الله أمة

---

(٤٤) السابق ٥٣٢

(٤٥) السابق ٥٧١-٥٧٢

(٤٦) الأيام المبرورة في البقاع المقدسة ص ٩٦

وسطًا تحيط بكم أكبر مجموعة من الأمم الإسلامية التي كان لها في تاريخ الإسلام أعظم شأن.وقد رأيتم بالفطنة النافذة والفطرة الكريمة أنه إن جاز لكل بلاد العالم أن تخضع إلى القوانين الغربية أوتجعل منها ومن الشريعة المحمدية مزيجًا يناسب الزمان والمكان، فلا يجوز لهذه البلاد المريقة في الإسلام أن تخضع في قوانينها لغير القرآن والسنة،وهكذا أحييتم التشريع السمائي وأثبت الزمن أنه كاف لاستقامة الأمور وتقويم الاعوجاج وإصلاح الأشخاص والأشياء،وهذا ما يسميه العلماء بالدليل التاريخي وقد قدمتموه بين يدي الله وعلى مشهد من جميع الأمم. (٤٧)

وقد برهن جلالته بتطبيق أحكام الشريعة المحمدية على صلاحيتها لكل زمان ومكان، فأقام حدود الله وسنة محمد عليه الصلاة والسلام. (٤٨)

(٤)

ومن الركائزالمهمة التي ينطلق منها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الموقف من العلم؛اكتسابا وتقديرا وبهذا السبيل،سبيل العلم،يصان الفكر من الجمود والتعصب،وكم عانت بلدان في عالمنا الإسلامي لابتعاد القائمين على أمرها عن هذا السبيل !

ذكر لنا الدكتور محمد حسين هيكل أنه كان للملك عبد العزيز مجلسا بعد العشاء من "**كل**" مساء، وهو مجلس علم بكل ما تعنيه الكلمة من دلالة"ذلك أن الإمام الذي يصلّي بابن السعود يقرأ له بعد العشاء من كل مساء شيئًا من تفسير القرآن في تفسير ابن كثير،أو شيئًا من الحديث في ابن كثير كذلك.ويشترك الحاضرون في تبادل الرأي فيما يسمعون.وكثيرًا ما يشارك الملك في الحوار ابتغاء الحقيقة؛فهذا كتاب الله وهذه سنة رسول الله،لكل مسلم منهما حظ ونصيب.فيهما هدى لكل مسلم،وهما سبيله إلى الله؛فالكل متساوون أمامهما لا تفاوت بينهم بسبب مناصبهم أو جاههم أو مالهم "(٤٩)

وهذه الإشارة داعية إلى كثير من التأمل؛فالمجلس ينصب على القرآن والحديث؛ الركنيْن الركينين اللذيْن يستمد منهما المرء أفكاره وقيمه ومظاهر سلوكه؛ على نحو ما صرح الملك عبد العزيز في غير مناسبة كما سنرى.

والمجلس لا يقتصر على النقل بل فيه تأمل وإعمال للعقل عبر المناقشة "وتبادل الرأي"، والملك عبد العزيز في هذه الحالة يحسن التأتي إلى هذيْن المصدريْن ويحسن الاستمداد؛فالمناقشة متاحة منسابة لا تعوقها مكانة ملك محبوب مهيب.

(٤٧)من خطبة محمد لطفي جمعة في منى يوم عيد الأضحى بحضور الملك ورجال الدولة والسفراء وكبار الحجاج من جميع الأقطار السابق ص ١٥٧

(٤٨) السابق ص ١٠٦

(٤٩) في منزل الوحي ١٥٦

وبهذا السمت الذي جرى تنظيم المجلس وفقه نرى تكاملا بين المعرفة والعلم مما يقر في القلب، ويصدقه العمل والتعبد؛ إذ كان هذا المجلس يعقد مرتبطا بأداء الصلاة.

ويبذل الملك عبد العزيز – وهذا موقفه من العلم – عونا ورعاية للباحثين والعلماء، ويصبح هذا العون سمتا للملك "ورجال حكومته وقد أشار هيكل إلى ذلك غير مرة.(٥٠)

وللعلماء من رجال الدين عند الملك عبد العزيز مكانة، ولهم منزلتهم واحترامهم، وقد انطوت نفس الملك عبد العزيز على توقيرهم وتقديرهم، ولا فارق في هذا الشعور بين حاكم ورعية، فالمعيار الذي يبدو أن الملك عبد العزيز قد أخذ به هو معيار "العلم" وحده؛ فمن هؤلاء العلماء ابن بليهد، "وهذا الرجل خليفة محمد بن عبد الوهاب الحنبلي مجدِّد المذهب في نجد.والذي خلع اسمه على الوهابيين الذي اقتدوا به في اتباع ابن حنبل.وابن بليهد هو لذلك روح الحركة الوهابية في هذا الدور الحديث من أدوار حياتها وهو موضع التبجيل والاحترام من النجديين جميعًا.من مليكهم عبد العزيز بن سعود إلى أصغر صغير فيهم" (٥١)

معالم ومظاهر

> **متى اتفق الأمراء والعلماء ليستر كل منهم على صاحبه،فيمنح الأمير المنح،والعلماء يدلسون،ضاعت حقوق الناس وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى**
>
> **الملك عبد العزيز**

(١)

نتوقف في هذا المبحث إزاء ما كان من تجليات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ارتبطت بالملك عبد العزيز رحمه الله ؛ وقد تنوعت هذه التجليات تنوعا كاشفا عن النهج والطريقة ، وعن المجالات ؛ وهي في تنوعها مُبِينةٌ عن تلك المقومات التي فصلنا القول فيها في المبحث السابق.

وقد يكون ذلك على نحو مباشر؛"...تحدث الملك إلى الحاضرين وألقى كلمة نصح فيه المسلمين بما هو واجب عليهم نحو أنفسهم من التمسك بتوحيد الله وإفراده بالعبودية والإخلاص له في الطاعة. (٥٢)

وقد يتسع مدى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتجه إلى المخاطبين من الرعية توجهه إلى الملك نفسه وبنبه من بعده!! ؛ "اسمع خطباءكم يقولون: هذا إمام عادل.وهذا كذا وكذا –

---

(٥٠) انظر السابق ٢٩، ١٥٥، ١٥٧، ٣٨٥،٣٩٨، ٥٩٠.

(٥١) السابق ١٠٧

(٥٢) الأيام المبرورة في البقاع المقدسة ص ١٠٤،١٠٦

فاعلموا إن ما من رجل، مهما بلغ من المنازل العالية،يستطيع أن يكون له أثر وأن يقوم بعمل جيد،إذا كان لا يخشى الله.وإني أحذركم من اتباع الشهوات التي فيها خراب الدين والدنيا.واحثكم على الصراحة والصدق في القول،وعلى ترك الرياء والملق في الحديث.لم يفسد الممالك إلا الملوك وأحفادهم،وخدامهم،والعلماء الملقين وأعوانهم.ومتى اتفق الأمراء والعلماء ليستر كل منهم على صاحبه، فيمنح الأمير المنح،والعلماء يدلسون،ضاعت حقوق الناس وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى"إلى أن قال خاتمًا كلمته"وإني أحمد الله الذي جمع الشمل وامتن الأوطان.ولكم علي عهد الله وميثاقه إني أنصح لكم كما أنصح لنفسي وأولادي".

فهتف الناس إذ ذاك قائلين: "جزاك الله خيرًا، جزاك الله خيرًا !" (٥٣)

الأصل في الحكم تقوى الله،وصيانة الدين من الخراب، وفي بداية كلامه رحمه الله إشارة جلية إلى نفور من النفاق ،يؤكدها نصحه الصريح،ومع خراب الدين يكون الفساد والتدليس،ومن آثار التمسك بالدين الوقاية من ذلك كله،ومن تجلياته الدالة عليه النصح للرعية كالنصح للنفس والأولاد!وهذا الإقبال المحب من الرعية الذي يشي به هتاف الناس.

ومن ذلك تنبيهه رحمه الله إلى **ضرورة تقديم المشيئة**؛يقول محمد لطفي جمعة:"أيها الملك العظيم،سمعتك بأذني تأخذ على الشاعر والخطيب كليهما إذا لم يقدِّما مشيئة الله يقينًا منك بأن الله وحدة هو الفعال لما يريد وأن هذه القدرة التامة والإرادة المطلقة تتعلق بأكثر الأمور وأصغرها وأن الإنسان مهما علت مكانته فهو ضعيف أمام الله جلت قدرته".(٥٤)

وقد يتخذ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من **الكتاب المطبوع** وسيلة يهيب بها في الدعوة والإصلاح؛على نحو ما يخبرنا محمد لطفي جمعة:"إن الكتب التي تفضل جلالة عبد العزيز آل سعود بإهدائها إليَّ...وجدتها ستين كتابًا أي مجلدًا بين كبير ووسط وصغير ومعظمها مؤلف من بضعة أجزاء،وأهمها تفسير القرآن وأحكام الشريعة وفتاوى ابن تيمية وابن قيم الجوزية وردودهما على المعتزلة والجهمية في المذهب السلفي...وقد لاحظت من النظرة الأولى أن **كل كتاب منها مطبوع على حساب جلالة الملك عبد العزيز**.

---

(٥٣) تاريخ نجد الحديث ٣٨٩-٣٩٠

(٥٤)من خطبته في منى يوم عيد الأضحى بحضور الملك ورجال الدولة والسفراء وكبار الحجاج من جميع الأقطار—الأيام المبرورة ص ١٦٠

ولا ريب في أن طبع مثل هذه الكتب نافع لأصحاب المذهب السلفي ونافع لأجل **نشر الدعوة** إلى هذا المذهب، وقد بدء في طبع هذه الكتب من سنة ١٣٤٦هـ.أي منذ أن تقلد الملك عبد العزيز مقاليد الأمور في بلاد الحجاز (٥٥)

وفي ذلك – وغيره –كان إنفاق الأموال؛"وقد اتجه أطال الله عمره إلى إنهاض الحجاز،...وأشرك العباد من أهل البلاد وجعل لهم حقوقًا في كنوز أوطانهم التي جعله الله عليها خازنًا أمينًا **ينفق معظمها في الإصلاح والإحسان وتهذيب الرعية** ورفع مستواها والأخذ بأسباب التحضر". (٥٦)

وقد يلفت الملك عبد العزيز الأنظار إلى **المجال الذي ينبغي أن تتجه إليه جهود الأمر بالمعروف** ؛ مشيرا بصراحة وحفز همة بلغا غاية المدى أن هذا المجال مجال الشعوب وحركتهم لا الملوك ودعوتهم!!

لقد تحدث عن تحقيق الوحدة المبتغاة بين الشعوب حديثًا مطولا يدعوك إلى الإعجاب بالرؤية التي يعرضها،وإلى التعجب –والإعجاب أيضا – من البساطة والمباشرة التي يعرض بها مخاطبا محمد حسين هيكل؛"وهذه البلاد العربية والإسلامية المتجاورة ترتبط منذ مئات السنين بروابط قوية إذا تعهدها من يعنيه أمرها ازدادت متانة وقوة.و**ليس أحب إليّ من أن تتحد هذه البلاد** كلها في أغراضها مع بقاء كل منها محتفظًا بكيان سياسي له وحده الخيار في تغييره.لكنني أقول لك:**إن الدعوة إلى هذه الوحدة لا يجوز الاعتماد فيها علينا معشر الملوك**،ولا يجوز الاعتماد فيها على الحكومات.فنحن مرتبطون مع أسلافنا بماض له فينا أثر لا نستطيع الفكاك منه.ونحن مرتبطون كذلك باعتبارات سياسية لها عندنا وزنها.ثم إن للملوك مطامع تجعلهم يحيدون،حرصًا على تحقيقها،عن الفكرة التي لا يضطر أمثالك أن يحيدوا عنها لمثل هذه الاعتبارات...فأما الرجال الذين يؤمنون بفكرة ويَهَبون لها حياتهم،لا يبتغون من ورائهم حكمًا ولا سلطانًا،وإنما يريدون لها أن تتحقق،فأكثر أمرهم أن يصلوا إلى غايتهم.وفكرة الإخاء الإسلامي فكرة سامية بلا ريب من غير حاجة إلى سند لها من وحدة سياسية تؤازرها.وإني لأرجو لك ولأمثالك ممن يدعون إليها التوفيق والنجاح". (٥٧)

الوحدة المبتغاة ليست قرارات حكم لكنها إرادة شعوب،وللاعتبارات السياسية تأثيراتها الضاغطة على "الملوك"، ودعاة الوحدة بمنجى عن هذه الاعتبارات،ولم يصل الملك عبد العزيز إلى مثل هذه الأحكام إلا باستقراءٍ لأحداث الواقع المحيط به واستخراج لأبعاده ودلالاته، وهو ما يرينا نمط غيريا من التفكير،لا ينعزل فيه الحاكم في نطاق وطنه وشعبه بل تتسع دائرة الاهتمام عبر آفاق أمتة كلها.

---

(٥٥) السابق ص ٢٤٦- ٢٤٧

(٥٦) السابق ص ٢٦١

(٥٧)في منزل الوحي ١٦٤

(٢)

وللملك عبد العزيز نهج في التوجيه والعمل على الاصلاح يأخذ بالرفق واللين،والحزم والشدة؛"وقد أثبت الملك بعدله ورحمته وعقله وإيمانه ونور بصيرته أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان وكل مكان وأنه ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن،وهو يتبع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام...،فإن شغب شاغب أو نعر ناعر فلا يسطو عليه سطوة الجبار التي تجعله نكالا وموعظة، وإنما يأخذه باللين والهوادة والموعظة الحسنة حتى يصل به إلى الهداية والطاعة،...وأن حق الله على من يستودعه مثل تلك الأمانة من أئمة المسلمين وملوكهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ومواريث النبوة التي أورثهم وأثر العلم الذي استودعهم والعمل بالعدل والرحمة في رعيتهم والتشمير لطاعة الله فيهم. (٥٨)

وقد يكون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والتلميح لا بالمواجهة والتجريح على نحو ما يقص علينا أمين الريحاني كيف كان الملك ينبه إلى الخطأ؛فلا يسيء إلى المخطئ ولا يؤذيه؛"أما السلطان فهو يحب الروائح الطيبة ويشمئز من رائحة الدخان.وما كان ليزورني كل ليلة على ما أظن لو كنت أدخن يوم كنت ضيفه في القصر بالرياض.

حدثنا المستر فلبي في كتابه "قلب البلاد العربية" قال: كنت أنا ورفيقى ندخن ذات ليلة (وكانا مثلي ضيفين في القصر) إذ دخل علينا عبد يعلمنا بقدوم الشيوخ.وكانت الغلايين وعلب التبغ مبعثرة على الديوان،فخبأناها مسرعين وفتحنا الشبابيك كلها. إلا أنه عندما دخل السلطان كان الدخان لا يزال منتشرًا في الغرفة. فجلس متجاهلاً، وكان لطيفًا على عادته.ولكن أحد العبيد جاء توًّا بالمجمرة وفيها الطيب فقدمها لسموه ودار علينا بها مرارًا ثم تركها على السجادة وسط القاعة تطهيرًا للهواء.

تجاهل السلطان مع أن دخان الغلايين أكره شيء لديه، وكان لطيفًا على عادته. ولكنها كانت أول زيارة منه لضيوفه في منزلهم، وآخر زيارة. (٥٩)

وقد يكون التنبيه بديلا عن العقوبة مادم سيحقق هدف تغيير المنكر ؛ "أُحضر امامه رجل ليجيب عن ذنب اقترفه،فقال بعد أن سمع قصته:الحق عليَّ لأني لم أحذرك، فلا أقاصك هذه المرة "(٦٠)

ويبدو أن للأمر ارتباطا بالمرونة التي تضيق بالجمود؛ وقد كان الملك عبد العزيز مرنا،نافرا من التعصب،حريصا على الإصابة في الحكم على الأمور حِلاً وحُرْمة.

---

(٥٨) الأيام المبرورة في البقاع المقدسة ص ٢٦٠-٢٦١

(٥٩) ملوك العرب ٥٦٣

(٦٠)السابق ٥٣٤

وفي أخذه بقيم المرونة والوسطية كان حريصا على تقريب الفكرة وضرب المثل، واتخاذ البرهان والدليل سبيلا بديلا عن إملاء الرأي وفرضه قهرا.

وفي بيان هذه الكيفية نأتي هذه القصة الطريفة التي أوردها محمد حسين هيكل، وفيها إبانة جلية عما أشرنا إليه "وكان النجديون أشد الناس طعنًا على"التليفون"و"الراديو"،وكانوا يزعمون أن الشياطين هي التي تتكلم فيهما،فكانوا لذلك يحرمون استعمالهما.ولما كانت الحاجة إلى هذه المنشآت ماسة ولم يكن الاستغناء عنها ممكنًا،فقد دعا ابن السعود كبار المشايخ وسألهم:أتستطيع الشياطين أن تتلو القرآن؟فلما أنكروا ذلك طلب إليهم أن ينصتوا لما في سماعة التليفون فإذا هو قرآن يتلوه قارئ جميل الصوت،فلم يبق لديهم ريب في حله؛وكان ذلك شأنهم أمام الراديو.وكل ما استطاع غلاتهم بعد ذلك أن يقولوه:إن هذه الآلات تصلح لنقل السيئ من الأخبار ولإذاعة المحرم من الغناء وأسباب الطرب".(٦١)

ولا يبالي إذا كان المشايخ والعلماء لا يرضون دائمًا عن هذه الخطة العمرانية، إذ ليس لهم أن يعترضوه بشيء في سياسته الداخلية والخارجية التي لا تمس الدين. وهو، وإن قيل أنه شديد التعصب لمذهبه، يحسن المداراة فيتجاهل في ما لا يضر، ويتساهل في ما هو مفيد لبلاده. قد يفوه أحد العلماء أحيانًا بكلمة فيها بعض ما يكنه من الوجد والأسى فيقول مثلاً: في أيام أجدادكم يا طويل العمر كانت الدنيا مستريحة من هذه المشاكل الجديدة كلها. فيسمع عبد العزيز ويبتسم ثم يسير في سبيله ليتمم مقاصده. (٦٢)

وقد غدت هذه المرونة والفهم السمح لتعاليم الدين سبيلا للتطور والنهضة على صعيد المخترعات والأدوات المادية التي تيسر سبل الحياة، وكذا على صعيد الفكر والثقافة والعلم؛ حتى لقد كان الملك عبد العزيز مفزع دعاة إصلاح التعليم والنهوض به "كان الشيخ حافظ وهبه – ممثل الحكومة العربية السعودية لدى بلاط لندن الآن – مديرًا للتعليم بالحجاز إلى سنة ١٩٣٠.وقد أراد أن يُصلح التعليم بإدخال علوم الجغرافيا والرسم واللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية الموجودة دون سواها بالحجاز.لكن العلماء وكبار المشايخ من أهل نجد ما لبثوا حين سمعوا بأمر هذا الإصلاح أن ثارت ثائرتهم واحتجوا لدى الملك ابن السعود على هذا البدع المنكر.واتصل الشيخ حافظ بهم وحاول إقناعهم بأن لا بدعة فيما صنع. فأجابوه بأنهم أبدوا للإمام عبد العزيز الحجج التي لا تُنْقَض عما يترتب على هذه العلوم من فساد؛فالرسم هو التصوير وهو محرم قطعًا، واللغات ذريعة للوقوف على عقائد الكفَّار وعلومهم الفاسدة؛وفي ذلك الخطر على الأخلاق والعقائد.وأما الجغرافيا ففيها كُرَوية الأرض ودَورَانها والكلام على النجوم والكواكب كما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف.ولقد استطاع الشيخ حافظ أن يتغلَّب على عناد كبار المشايخ،لا من طريق إقناعهم،ولكن من طريق تأييد الملك إيَّاه".(٦٣)

---

(٦١) في منزل الوحي ١٥١

(٦٢) ملوك العرب ٥٨٣

(٦٣) في منزل الوحي ١٢٤

وإلى ذلك يشير الدكتور محمد حسين هيكل "قصّ عليّ مَنْ تحدّثت إليهم بعض هذه الأنباء ومثلها، مما دلَّني على حيلة الرجل وسعتها وعلى دقة إدراكه لعقلية أهل بلاده والسبيل التي يسلكها لإقناعهم وتوجيههم نحو ما يراه الخير والحق.(٦٤)"ولقد فهمت منهم أنه رجل محب للإصلاح ميال بكل نفسه إليه، وأنه،وهو السياسي العليم بشدة قومه،يحاول ما استطاع التوفيق بين مذهبه في الدين وبين الأمر الواقع،ويحاول هذا التوفيق بمقدرة وذكاء يبدو بهما طبيعيًّا موفقًا"(٦٥)

ومما يؤكد الحرص على الترفق والتأسيس اعتمادا على الحكمة والتلطف ما أشار إليه الملك عبد العزيز من بيان الموقف من شيوخ رعيته وشبانهم "نحن قد جئنا هنا فوجدنا أمْنًا مضطربًا فوطَّدناه، ووجدنا شيوخًا لهم عاداتهم وشبانًا لا سلطان لهم، فعالجنا أمر الشيوخ لننزع بالحسنى ما خالف الدين من العادات، وأتحنا للشباب الفرصة لتأييد الفِكَر الإسلامية الصحيحة". (٦٦)

وسمة المرونة والنفور من التعصب وما يتصل بهما من المواقف والرؤى لم يبقها أمين الريحاني في دائرة التوقع والاستنتاج ؛ بل حسمها حسما عبر السؤال المباشر.

"سألت ذات يوم أحد رجال السلطان الأذكياء أن يصدقني الخبر أو يجهر لي برأيه الخاص، فقلت: لا أنكر ولا ينكر أحد صدق عقيدة الشيوخ الدينية، فهو أمام الموحدين. ولكني حائر يا صديقي في أمره والإخوان. فهل تظنه يعتقد أن على الإمام أن يحارب المشركين في كل مكان، أن يجاهدهم حتى يديّنوا ؟ في نيتي أن أسأل عظمته هذا السؤال. فقال صديقي: لا تفعل. والذي أراه أن السلطان يعتقد ذلك من الواجب.

لم يرضني جواب الرجل. فتطرقت ذات ليلة إلى الموضوع. ومما قلت للسلطان على ما أذكر أني في حيرة لا يزيلها سواه، وإذا سافرت من الرياض أحملها ساكتًا لا أكون راضيًا عن نفسي، وقد أسيء إليه في ما أكتب. فقال عظمته: اسألني كل ما تبغي وأنا أجيبك عليه. ولا أسامحك إذا سافرت من عندنا وفي نفسك حاجة نقضيها أو مسألة نجلي غامضها. فقلت: هل ترون أن من الواجب الديني محاربة المشركين حتى يدخلوا في دين التوحيد ؟

(٦٤) السابق ١٥٢

(٦٥) السابق ١٥٠

(٦٦) السابق ١٥٠

فأجاب على الفور: لا، لا. وضرب الأرض ضربتين بعصاه ثم قال: هذا الحسا، عندنا هناك أكثر من ثلاثين ألفًا من أهل الشيعة وهم يعيشون آمنين لا يتعرض لهم أحد. إلا أنا نسألهم ألا يكثروا من المظاهرات في احتفالاتهم... كن مطمئن البال يا أستاذ. لسنا كما يرانا بعض الناس. (٦٧)

ومما يكسب هذه الملاحظات التي سجلها الكُتّاب بعدا موضوعيا أن تؤيدها شهادات أطراف أخرى حتى أن الدكتور محمد حسين هيكل قد تحرى ذلك والتمسه التماسا وهو بصدد تكوين معالم صورة الملك عبد العزيز في نفسه "وأفضيت بخواطري عنه إلى بعض السوريين من موظفي الحكومة العربية وإلى بعض الشباب العربي من أهل مكة، راجيًا أن أجد في حديثهم ما تكمل به في نفسي صورته. ولقد فهمت منهم أنه رجل محب للإصلاح ميال بكل نفسه إليه،وأنه،وهو السياسي العليم بشدة قومه،يحاول ما استطاع التوفيق بين مذهبه في الدين وبين الأمر الواقع، ويحاول هذا التوفيق بمقدرة وذكاء يبدو بهما طبيعيًّا موفقًا. (٦٨)

وهذه الصورة لم يتوصل إليها الكتاب الذين ارتحلوا إلى الحجاز ممن أوردنا أقوالهم وحدهم بل قد قرت لدى قُصّاد الحجاز بعامة "وجعل قصّاد الحجاز يصورّون الملك عبد العزيز بن السعود صورة خلابة تحببه إلى النفس وتدعو إلى الإعجاب به". (٦٩)

ولعلنا بذلك نفطن الى أن في عدم معرفة الناس بهذا البعد في سيرة الملك المؤسس سببا في أوهام وادعاءات حول طبيعة الحكم،وفي أحكام سبقة شاعت وراحت تزعم جموده وانغلاقه وأخذه الناس— فيما يتصل بالدين—بالبطش والشدة.

(٣)

وحاكم هذا سمته وفكره لا نستغرب أن يشهد مجلسه أمرا بمعروف ونهيا عن منكر وتذكيرا وذكرى مما ينفع المؤمنين. (٧٠)

ذلك أن المتحدثين من الدعاة والمفكرين يرون في **مجلس الملك عبد العزيز رحمه الله فرصة ينبغي أن تنتهز للنصح أمرا بمعروف**؛"وإنني أنتهز هذه الفرصة الوحيدة في هذا اليوم السعيد الذي اجتمع فيه

---

(٦٧) ملوك العرب ٥٨٣–٥٨٤

(٦٨) في منزل الوحي ١٥٠

(٦٩) السابق ١٤٧– ١٤٨ وانظر ملوك العرب ٥٠٧–٥٠٨ – ٥٠٩

(٧٠) راجع في هذه الجزئية خطبة محمد لطفي جمعة في حفل عشاء أقامه الملك عبد العزيز ص ١٠٦–١١٠ وخطبته في منى يوم عيد الأضحى بحضور الملك ورجال الدولة والسفراء وكبار الحجاج من جميع الأقطار ص ١٥٩،١٦٠ من الأيام المبرورة في البقاع المقدسة

المسلمون من سائر الأقطار في صعيد واحد في قصر الملك المعظم في منى لأحث الأغنياء على البذل في سبيل نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الدين والتعاون على خدمة المسلمين بالعلم والخروج من ظلمات الجهل إلى أضواء المعرفة التي تؤدي بهم إلى سعادة الدارين،وبالآداب المحمدية الكاملة والمثل الصالحة فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق. وكفانا موعظة ولو لأيام معدودة أن نعلم آيات الله"فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ "صدق الله العظيم."

- يشير محمد لطفي جمعة في كلمة له الى قيمة **العدل والمساواة** "وعرفة لذلك المعنى الأسمى اجتماع المسلمين من جميع الأقطار ليشهدوا منافع لهم وليتعارفوا ويتشاوروا فيما يعود على الإسلام والمسلمين بالخير العميم،وإن في هذه الاجتماعات المتواترة في أهم الأيام تزكية وتضحية وقنوتًا وزهدًا في أعراض الدنيا ورجاء في خير الآخرة ولداعيًا للتراحم والتعاطف واهتمام الغني بحال الفقير والسعيد بالشقي والميسور المنعم بالبائس المحروم،وإن في هذه الاجتماعات لرمزًا للمساواة التي أمر الله بها وسنتها سنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، فلم يجعل الله فرقًا إلا بالتقوى حيث قال أكرمكم عند الله أتقاكم ولم يقل أغناكم ولا أجملكم ولا أدهاكم ولا أذكاكم ولا أعلاكم مكانة في الدنيا بل أكرمكم أقربكم إلى الطاعات والاستقامة، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام الناس سواسية كأسنان المشط وقال خليفة رسول الله بم استعبدتموهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا.
- وإلى أهمية **الجمع بين العلم والعمل** والمسلمون اليوم الذين تمثلهم هذه الوفود الحاشدة من جميع القارات تقريبًا والناطقين بالشهادتين بأكثر من عشرين لسانًا،المسلمون اليوم ينقصهم مُذكِّر مؤثر يذكرهم بدين الله وبحقه عليهم،حق العمل وحق الجهاد،والعمل هو من الجهاد أو هو أكبره كما قال رسول الله حين عودته من إحدى غزواته رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.والمسلمون اليوم لا ينقصهم العلم بما عليهم لله في أنفسهم وفي إخوانهم،ولكن ينقصهم العمل بما عندهم من العلم المستفيض فيهم،وفي حياة الرسول عليه الصلاة والسلام خير هداية لمن يحب العمل من الحاكمين والمحكومين.
- وإلى **الهدي النبوي في تنظيم الصلة بين الملك والرعية** "لقد اشتهر الرسول في وسط أعدائه وفي وسط المشركين بالأمانة والاستقامة والصدق،لأنه لم يعرف عنه غيرها منذ نعومة أظفاره،فكان زواجه وكانت صداقته واتباع الناس إياه وطاعتهم لربه ثمرة هذه الأخلاق الكريمة،ولذا وجب على المسلمين الحاكم منهم والمحكوم أن يتحلّوا بهذه الصفات اقتداء بالرسول....جاء محمد بالنور والرحمة والهداية وجاء بشريعة تكاد تسوي بين الملك وبين الرعية، **فالفرد له حقوق لا تقل عن حقوق الملك المتوج وعلى الملك المتوج واجبات ينوء بها ظهره وكلها لمصلحة الأفراد** كما رأينا في هذه البلاد، وبفضل محمد ودين محمد وشريعة محمد وتبشيره وإنذاره ووعده القرآن ووعيده كان الواعظ يدخل على الخليفة فيقرعه حتى يبكي كما فعل بعضهم مع هارون الرشيد وغيره

من أمراء المؤمنين والولاة، مما لو قيل بعضه لعظماء أوروبا لاعتبروه إهانة في حق الأمير، يستحق قائلها عقوبة الحبس الطويل.

- وإلى بيان **خطورة ولاية أمر من أمور المسلمين** "وكان كثير من الأئمة والعلماء يفرون من وظيفة القضاء حتى يجلدوا أو يسجنوا أو يجردوا من أموالهم وما ذلك إلا خوفًا منهم أن يخطئوا في الحكم فيظلموا أحدًا من الناس بحسن نية.فخشية الله وحدها والتقوى التي تلقّنوها عن محمد هي التي زهّدتهم في المناصب الكبيرة،وغيرهم في الممالك الأخرى يتهافتون عليها لما تجلبه من المنافع.وإذن فالقول بصعوبة إحياء الشريعة أو استحالة تطبيقها في الزمن الحديث قول لا ينطبق على الواقع ولا يمنعه من مظاهر الحضارة مانع

كان النبي صاحب الغزوات والملاحم ينقلب في بيته ملاكًا كريمًا ...حتى إنه ليصلي فيتسلق ظهره الحسن بن علي فيطيل سجوده حتى يترجل الغلام من تلقاء نفسه، وكان رحيمًا بالنساء.

كان رسول الله يحكم في القضايا وقد جعل للمتقاضين دستورًا فقال "إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إليَّ ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق من أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من نار"، أرأيت كيف يحدد رسول الله عمل القاضي وتبعته كما يحدد تبعه المتخاصمين، **هذا أيها الملك المعظم منهاج محمد الذي تجاهد في سبيل اتباعه وتلك خطته التي نحمد الله على أنك سلكتها** وعملت على تعميمها بإذن الله حتى ينهض الإسلام والمسلمين في هذا القرن الرابع عشر الهجري كما نهض الغرب في القرن الرابع عشر المسيحي، فإن أربعة عشر رمز التمام والإحياء في حياة الأمم.

- وإلى بيان **دور النظام الالهي في صلاح المجتمعات ونهضة الأمم** أما ما ينسب إلى الحكم الرشيد العادل من الشدة، فلا نبالي به ولا نكترث له فإنما يمليه الضعف والركاكة في الأخلاق – ورضوان الله على من قال: اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة، فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مريء وإن الباطل خفيف وبئ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً.

ذلك هو الفرق أيها الحجاج المحترمون بين نظام يضعه الخالق وينفذه الملك العادل، ونظام يضعه المخلوق وتنفذه المطامع والأغراض والشهوات، وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح والإيمان ومجتمع يعيش بالآلات والأجساد والمشاعر، وذلك هو المفهوم من دين سمّاه الله الإسلام وجعل تحية أهله السلام وقرن فيه الصلاة دائمًا بالسلام، ووصف أهله بأنهم الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا.

آثار ونتائج

ومجتمع تسود فيه هذه الشعيرة تتنامى فيه دوافع البر وصور الخير، وتتضاءل فيه نزغات الاثم وأشكال المنكر

ولم يتبق لنا سوى أن نلقي نظرة سريعة على الآثار والنتائج التي ترتبت على هذا "المناخ" الذي ساد منظومة الحكم ، وقد كانت شعيرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر معلما بارزا فيه.

ومجتمع تسود فيه هذه الشعيرة تتنامى فيه دوافع البر وصور الخير، وتتضاءل فيه نزغات الاثم وأشكال المنكر؛ مما دفع الزائرين أن يربطوا ما شاهدوه من استقرار وأمن وأمان،وحضارة ورقي وعمران بتوجه الحكم إلى الإهابة بقيم الدين.

لقد أحيا الملك عبد العزيز التشريع السماوي، وأثبت الزمن أنه كاف لاستقامة الأمور وتقويم الاعوجاج وإصلاح النفوس وتهذيب العواطف وتقويم الأخلاق ودرء المفاسد وسد منافذ الشر، وفتح أبواب الخير والحق والعدل والرحمة،وهو ما يسميه العلماء بالدليل التاريخي،وقد قدمه الملك بين يدي الله وعلى مشهد من جميع الأمم والشعوب. (٧١)

كان أول عمل قام به الملك عبد العزيز بعد أن فتح الحجاز سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٣م) إرساء قواعد الأمن على أسس قوية متينة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فأعلن في جموع الأهالي ورؤساء القبائل وزعماء العشائر أن دستور دولته هو كتاب الله وسنة نبيه، وأنه سوف يضرب بيد من حديد وبلا رحمة ولا شفقة على كل من تسول له نفسه العبث بالأمن، أو يحاول تعكير صفوه، وركز بصفة خاصة على توفير الأمن والطمأنينة لحجاج بيت الله الحرام في جميع المشاعر والمناسك والطرقات المؤدية إليها....ومن محاسن الملك العادل أنه حقق آية الله في تأمين البيت الحرام وبذل النفس والنفيس في نشر العدل والرحمة بين أمة الحجاز الكريمة الأعراق، فكل من في تلك الأرض المقدسة العزيزة على نفوس الملايين من المسلمين آمن مطئمن على حياته وعرضه وماله وكرامته بفضل الشريعة السمحاء أولاً ثم بفضل الملك الذي لا يغمض له عين حتى يرجع كل حق إلى نصابه. إن المملكة السعودية تمضي اليوم على السياسة الشرعية الواعية التي عمل بها مؤسسها العظيم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، لا تفرط في شيء من مبادئ الإسلام القويمة وتعاليمه الرشيدة، التي أثبتت التجارب أن تحقيقها والعمل بها ضمان للأمن والطمأنينة ووقاية من الفتنة والفوضى (٧٢)

---

(٧١) الأيام المبرورة في البقاع المقدسة ص ٣٤

(٧٢)راجع السابق ص ٣٤،٣٣، ٩٦، ١٠٠، ٢٦٠

ويمثل العدل ركيزة يقوم عليها الملك ولا يتحقق ذلك – عمليا– قدر تحققه في حكم ابن سعود؛"العدل أساس الملك،"عدل ابن سعود"!كلمة تسمعها في البحر وفي البر وفي طريقك إلى نجد قبل أن تصل إليها.كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجدالذي لا يعرف في سبيل العدل كبيرًا أو غنيًا. كل الأعمال الاثيمة عند الحاكم سواء.

وإن الماضي القريب مازال ماثلاً أمام الأذهان ومحفوظًا في ذاكرة كثير من النزلاء والأضياف والحجاج، لقد ضرب المثل بغدر الطوائف التي كانت تحتك بالحجيج في كل عام وبعض المعاصرين للعهد القديم رووا روايات صحيحة مؤيدة بالأدلة كان الحاج فيها فريسة ؛فمن الضرب والقتل إلى التعدي على المال والسرقة والخطف ونهب الثياب والطعام، وقد يصف لك أحدهم حياة القوافل فكأنه يصف ركنًا من الجحيم.

أما الآن فقد تبدل الحال غير الحال؛فأصبحت هناك أنباء جديدة بالأمان تغالب أنباء قديمة بافتقاده؛ بدأت أنباء جديدة تغالب الأنباء القديمة وتتغلب عليها ، وأصبح الانطباع السائد لدى كل حاج أو معتمر أو زائر أو سائح أو مقيم،هو أن المملكة السعودية تنعم اليوم بصفاء روحي،وأن الناس يعيشون عيشة هادئة آمنة مطمئنة،لا خوف فيها ولا اضطراب ولا تنازع ولا تناحر، آمنين على أرواحهم وأنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم وأعراضهم، حتى أصبح الأمن والاستقرار في ربوع البلاد مضرب الأمثال في جميع الأوساط الدولية،بعد أن كان الحجاز في يوم من الأيام مضرب الأمثال على اختلال الأمن واضطراب حبل النظام. كيف تمكن ابن سعود من إقامة مثل هذا الأمن وتوطيده في بلاده ؟ بأمرين: أولهما الشرع وثانيهما تنفيذ أحكام الشرع تنفيذًا لا يعرف التردد ولا التمييز، ولا الرأفة. (٧٣)

وللدكتور هيكل نص مطول مهم أشار فيه إلى اقتران الأمان بتحقيق العمران، وقارن بين كان عليه أمر الحجاز وما أصبح عليه في الجانب الاجتماعي الخلقي خاصة،وضمّته شهادة من طالت إقامته فاستطاع أن يدلي بملاحظات معينة على المقارنة المشار إليها؛فأما ما لا مِرْية فيه فهو أن الحجاز لم يتمتع منذ مئات السنين بما يتمتع به اليوم من أمن،وأن الأخلاق العامة في المدن أرقى كثيرًا مما كانت،وأن ما ينفق في التعليم وما إليه من مرافق الإصلاح أكثر مما كان ينفق في العهود السالفة جميعًا.قال لي طبيب أقام بمكة سنوات طويلة:إنني لم أر فيما رأيت أو سمعت عهدًا كهذا العهد بالنسبة للحجاز وحسبي أن أذكر لك أن أمّ القرى هذه كانت مثلا في الاستهتار الخلقي قبل حكم النجديين،حتى لقد كان الرجل لا يأبي أن يسير وفي صحبته غلام يعرف الكلُّ صلته به،وأن كل شيء فيها كان مباحًا في رأي أهلها لأن الحج إليها مصدر

(٧٣)راجع في المقارنة بين ما كان من اضطراب و مظالم ومفاسد وما اصبح عليه الحال من عدل وأمان مع الاخذ بسياسة الملك عبد العزيز باختلاف جوانبها –والقضاء على المنكر من أركانها وكذا ضرب الامثلة الدالة على ذلك كله ملوك العرب ٥٥٦إلى ٥٦٢ ،٥٧٥و الأيام المبرورة في البقاع المقدسة ص٣٢، ٣٣، ٩٩ ،١٥٦،١٥٧الارتسامات اللطاف١٢٢-١٢٣ في منزل الوحي ١٤٧-١٤٨-١٦٥

المغفرة.أما اليوم فلا يقع شيء من ذلك في العلن؛وما يتصل أمره بأولى الشأن مما يقع خفية يعافه الناس فلا يجد مشجِّعًا عليه" (٧٤)

ومثلما حرص الزائرون على عقد مقارنة بين ما كان عليه الحال وما أصبح عليه في شق الأمان نجدهم حريصين على عقدها في شق العمران؛ وهذا الأنباء التي يقصّها الناس عن آثار حكمه. وإنما أضيف إلى ما سبق أن الرجل خرج بنجد من عزلة كانت فيها بعيدة عن العا لم، وأتاح لهؤلاء البدو أن يتصلوا من طريق المخترعات الحديثة بعالمنا السريع التغير والتطوّر. فهذا النجديّ الذي كان لا يعرف غير بعيره أو جواده من عشر سنوات مضت قد ألِف السيارة والطيّارة والإذاعة اللاسلكية، وأدرك أنها من عمل الإنسان، وكان يحسبها من قبل من عمل الشيطان؛ وهو اليوم يفيد من مزاياها ما يقرّبه من العصر وأهله وما يُعده لتطور سريع لعلنا نراه بأعيننا قريبًا. (٧٥)

وبعد

فقد كانت الصفحات السابقة اجتهادا– يمضي بين الأجر الواحد أو الأجرين – في قراءة نماذج من أدب الرحلات انطلاقا من دوافع تتصل بالواقع الذي تحياه أمتنا؛ شئونه الشاغلة ، وشجونه المؤرقة، وبشعيرة تنهض بها مجتمعاتنا مترقية من حسن إلى أحسن ،وبدعوة لتجديد التواصل مع أعلام تعتز بهم الامة .

وقد يتحفظ القارئ على فهم وتفسير،وقد يتوقف إزاء خلل وقصور؛فإن دعته القراءة التي اكتشف فيها ذلك إلى تواصل مباشر مع مادة الدراسة يقوّم به ويصوِّب،ويستدرك ويستكمل ، إن دعته القراءة إلى شيء من ذلك فستكون هذه الصفحات قد حققت إنجازا لا يستهان به على أية حال!!

والله من وراء القصد وله الحمد أولا وآخرا

(٧٤) في منزل الوحي ١٦٥

(٧٥) في منزل الوحي ١٦٦

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبراهيم بن عبد الله السماري:الملك عبد العزيز الشخصية والقيادة- الامانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية -١٩٩٩
- أحمد الشرباصي:شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام–القاهرة-المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩٦٣
- أحمد حطيط : الملك عبد العزيز بن سعود - الطبعة الأولى- بيروت- دار الفكر اللبناني- ١٩٩١
- أمين الرّيحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته : الطبعة الاولى - بيروت المطبعة العلمية. ١٩٢٨
- أمين الريحَاني: مُلوك العَرب- الطبعة الثامنة - بيروت- دار الجيل١٩٨٧
- جميل عويدات :أعلام نهضة العرب في القرن العشرين، الطبعة الأولى ،بيروت،دار الفكر- ١٩٩٤.
- حالد بن عبد الرحمن الجريسي : أخلاق الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه-الطبعة الأولى- الرياض- ٢٠٠٨
- حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب الطبعة الثانية- بيروت- دار الاندلس-١٩٨٣
- حسين فوزي النجار: الدكتور محمد حسين هيكل مفكرا وأديبا- القاهرة دار المعارف بمصر
- خير الدين الزركلي: الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز- الطبعة الخامسة- بيروت-دار العلم للملايين- ١٩٨٨
- سامي الدهان: الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره -القاهرة- دار المعارف ١٩٦٠.
- شكيب أرسلان :الارتسامات اللِّطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف -وقف على تصحيحها وعلق حواشيها السيد محمد رشيد رضا- الطبعة الأولى مطبعة المنار بمصر – ١٣٥٠ھ
- صالح زهر الدين:رجالات من بلاد العرب-الطبعة الأولى-بيروت-المركز العربي للأبحاث والتوثيق،٢٠٠١
- عيسى ميخائيل سابا :أمين الريحاني، الطبعة الثالثة ، القاهرة، دار المعارف
- محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية- الطبعة الأولى-جدة- دار الأندلس الخضراء -٢٠٠٠
- محمد حسين هيكل : في منزل الوحي- الطبعة الثامنة – القاهرة- دار المعارف ١٩٨٦
- محمد دكروب :خمسة رواد يحاورون العصر، الطبعة الأولى ، بيروت –دار الكلمة- ١٩٩٢
- محمد لطفي جمعة: الأيام المبرورة في البقاع المقدسة -رحلة الحج والزيارة إلى الأراضي الحجازية في عهد الملك عبد العزيز آل سعود --مراجعة رابح لطفي جمعة القاهرة - عالم الكتب – ١٩٩٩
- موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين-الطبعة الأولى- بيروت -المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

جدول المحتويات